عرفة

يُقْضَى على المرءِ فى أيَّام مِحْنَتِهِ حتَّى يرى حَسَناً مَا لَيْس بالحَسنِ

أبرز الرموز الواردة فى فصل « عرفة » ومعانيها :

م	الرمز	معناه
١	عرفة	رمز العلم الحديث
٢	حنش	رمز القوُّة فى العلم الحديث
٣	قَتْل عرفة الجبلاوى	قضاء العلم الحديث على الدين ؟
٤	موت الجبلاوى	انتهاء دور الدين فى الحياة ؟
٥	إحياء عرفة « الجبلاوى »	علو سُلْطان العلم الحديث على الدين ؟
٦	وصية الجبلاوى لعرفة	استسلام الدين للعلم الحديث ؟
٧	السِّحْر	العلم الحديث المذهل
٨	المكتوب مكتوب	جبرية القضاء والقدر ؟
٩	نهاية واحدة هى الموت	إنكار الحياة الآخرة ؟!
١٠	الحجرة الخلفية	المعامل والمختبرات العلمية

عرفة

توطئة

الدراسة السريعة ، التى قمنا بها للفصول الأربعة : أدهم - جبل - رفاعة - قاسم ، ثم المقدمة التى عنوانها « افتتاحية » ، هذه الدراسة كشفت - فى وضوح مدعوم بالأدلة القاطعة - كشفت لنا عن الكثير من « جُوَّانيات » مؤلف الرواية : الأستاذ نجيب محفوظ ، وقد وقف قارئ الدراسة على نماذج متعددة من تلك « الجوانيات » ، وإذا أردنا التعبير عن تلك « الجوانيات » النجيبية فى عبارة قصيرة « مُلَطَّفَة » ، فإننا نقول :

إن هناك « جَفْوَة » ظاهرة بين مؤلف الرواية وبين الحقيقة الدينية ، سيطرت على وجدان الكاتب وهو يخط بيده المقدمة ، والفصول الثلاثة الأولى التالية للمقدمة ، وهى :

أدهم ، وجبل ، ورفاعة ، أى : آدم ، وموسى ، وعيسى عليهم السلام، ثم بلغت « الجفوة » مدىً بعيداً فى الفصل الرابع الذى عنوانه : قاسم ، أى: محمد ﷺ .

ونقول « جفوة » فى شىء كبير من « التسامح والملاطفة » ، وإلا فإن الواقع يتجاوز حدود الجفوة إلى عداء صارخ ، وخصومة عنيفة ، وكان ما أبداه الكاتب فى الفصول الأربعة من « جفوة » للحقيقة الدينية ، أو قِيَم الإيمان والدين طريقاً مهدها المؤلف للوصول إلى غايات أسفر عنها الفصل الخامس والأخير من فصول الرواية « أولاد حارتنا » .

وهذا الفصل الأخير « عرفة » تدور وقائعه حول محور واحد هو: الصراع

بين حقائق الإيمان ممثلة فى رسالات الرُّسُل الكبار وبين العلم المادى الحديث ، ممثلاً فى عرفة ، وخليفته حنش .

أما نتيجة الصراع ، فإن المؤلف جعلها فى صالح العلم المادى الحديث ، حيث خرَّ الدين صريعاً بين مخالب ذلك العلم ، وانبهر أولاد الحارة بثمار العلم المادى الحديث وقالوا : لو عاد الجبلاوى من موته ، وخُيِّرنا بينه وبين العلم المادى الحديث لاخترنا العلم دون الجبلاوى ؟!

وكان المؤلف قد مهَّد لهذه النتيجة تمهيدات بارعة الحيلة والخداع طوال الفصل الخامس كله ، وهيأ أذهان القُرَّاء لقبولها ، بل الإيمان العميق بها ، والتعصب الأعمى لها ؟!

وكما أقمنا من قبل عشرات الأدلة على أن الرواية تعرض التاريخ الدينى النبوى فى دهاء وحذر ، فإننا مطالبون - هنا - بإثبات ما فهمناه من وقائع الفصل الخامس « عرفة » ، وهو انهزام الدين أمام العلم المادى الحديث ، وتفضيل أولاد الحارة للعلم المادى الحديث على قِيمَ الإيمان وأُصول الأديان السماوية ، وأن هذا كله اختيار المؤلف ، واختيار الرجل قطعة منه كما يقول المثل ؟ ولو - على الأقل - وقت كتابة المؤلف هذه الرواية الآثمة منذ ما يقارب أربعين عاماً .

وسوف نثبت صدق ما أشرنا إليه من خلال كلام المؤلف الذى احتواه فصله الخامس « عرفة » ، وسيكون حديثنا موزعاً على المحاور الآتية :

- التعريض بعجز الأديان السماوية عن ريادة الحياة .
- ظهور عرفة ممثل العلم المادى الحديث .
- حشو تمويهى بالصراع بين الطوائف الدينية على السيادة .
- التجربة المذهلة لحركة العلم المادى الحديث .
- احتضان السُّلْطة الحاكمة لثمار العلم المادى الحديث .

- انحياز أولاد الحارة للعلم المادى الحديث .
- قتل عرفة « الجبلاوى » والمعنى المستهدف منه ؟
- موت « الجبلاوى » ومقصود المؤلف منه ؟
- وراثة العلم المادى الحديث للدين وراثة شرعية .
- البواعث والأهداف على تأليف « أولاد حارتنا » .

هذا وبالله التوفيق .

● التعريض بعجز الأديان السماوية :

فى بداية فصل « عرفة » عرَّض المؤلف تعريضاً ظاهراً بالرسالات السماوية الثلاث : رسالة موسى ، ورسالة عيسى ، ورسالة محمد ﷺ . قال :

« أما أهل الحارة ، فانقلبوا إلى ما كانوا عليه فى الزمان الأسود ، بلا كرامة ، ولا سيادة ، تنهكهم الفاقة - الفقر - وتتهددهم النبابيت ، وتنهال عليهم الصفعات ، وانتشرت القذارة ، والذباب والقمل ، وكثر المتسولون والمشعوذون وذوو العاهات .

ولم يعد جبل ، ولا رفاعة ، ولا قاسم ، إلا أسماءً وأغانى يُنْشدها شعراء المقاهى المسطولون ، وتباهى كل فريق برجله الذى لم يبق منه شىء ، وتنافسوا فى ذلك إلى حد العراك ؟ (١) .

وبدأت شعارت المساطيل ، فيقول أحدهم وهو داخل إلى الغرزة :

« ما فيها فائدة » يعنى الدنيا لا الغرزة ؟ ويقول آخر : هناك نهاية واحدة

---

(١) جبل ورفاعة وقاسم هم : موسى وعيسى ومحمد . وقد حكم عليهم المؤلف بالإعدام كما ترى ، فلم يعد لأحد منهم أثر نافع فى الحياة ، وقد عرفنا من قبل أن الشعراء فى الرواية رمز للدعاة إلى الدين ، وأن المقاهى هى مراكز الإعلام كالنوادى ودور العلم ودور العبادة ، وهنا يصف المؤلف الدعاة إلى الدين والرواة للمعارف الدينية بأنهم مسطولون ؟!

هى الموت [1] ، فلنمت بيد الله خير من أن نموت بنبوت فتوة ، وأحسن ما نفعل : سُكْرة أو تحشيشة ؟ . . وعندما يشتد الكرب بأحدهم يقول :

« المكتوب مكتوب » لا جبل أجدى ، ولا رفاعة ولا قاسم ؟

حظنا من الدنيا الذباب ، ومن الآخرة التراب » [2] .

« ومن عجب أن تبقى حارتنا بعد ذلك كله هى الأثيرة بين الحوارى - يعنى المفضلة - يشير إليها الرجل من جيراننا ، ويقول فى إكبار : « حارة الجبلاوى » ؟

ونقبع فى أركانها - أى أركان الحارة - ساهمين واجمين ، كأننا بتنا قانعين بالذكريات العزيزة الماضية - يعنى تاريخ الرُّسُل - أوْ أنَّا نجتر - أى نسترد - الإصغاء إلى هاتف فى أعماقنا يهمس بصوت خافت :

« ليس من المستحيل أن يقع فى الغد ما وقع بالأمس ؟ فتتحقق مرة أُخرى أحلام الرباب ، وتختفى من دنيانا الظلمات » ؟! [3] .

* *

● **إدبار ... وإقبال :**

فى هذه الفقرات المنقولة حرفياً من رواية « أولاد حارتنا » ظاهرتان بارزتان :

أولاهما : ظاهرة إدبار إلى الخلف بالخطوة السريعة للرسالات السماوية الكبرى الثلاث :

---

(١) الموت ليس هو النهاية إلا عند من لم يؤمن بالحياة الآخرة . فهل معنى هذه العبادة مقصود فعلاً عند المؤلف ؟

(٢) فى هذه العبارة توكيد لمعنى العبارة « نهاية واحدة هى الموت » ، ونعيد التساؤل مرة أُخرى : هل يريد المؤلف أن أولاد الحارة كفروا بالبعث الذى قررته الرسالات الكبرى الثلاث ، كأثر من أثار فشل تلك الرسالات ، وأنهم أصبحوا دَهْريين يقولون كما قال الكفار من قبلهم : « وما نحن بمبعوثين » ؟

(٣) « أولاد حارتنا » ص ٤٤٨ وما بعدها .

رسالة موسى ، ورسالة عيسى ، ورسالة محمد ﷺ .

« فلا جبل أجدى ، ولا رفاعة ولا قاسم » ، هكذا قال مؤلف الرواية .

وقال : إنهم لم يبق منهم شيء إلا أسماء يرددها المسطولون من شعراء المقاهى .

والمعنى الرمزى لهذا الكلام : يرددها الدعاة إلى الدين فى مراكز تجمُّع الناس : دار عبادة ، أو دار علم ، أو ندوة . . . إلخ ، وهؤلاء الدعاة عند المؤلف مسطولون ، أو مخدَّرون كما قال « ماركس » من قبل : الدين أفيون الشعوب ؟!

وهذا حكم صريح أو كالصريح من المؤلف على الرسالات السماوية بأنها فشلت ، ولم تعد صالحة للتداول والعمل ؟!

ومن آثار فشلها أن « أولاد الحارة » كفروا بالبعث والحياة الآخرة ؟! فرأوا الموت هو النهاية ؟ ورأوا الآخرة كومة من التراب فوق حفرة هى بيت الخلود ؟!

إلى هذا الحد فشلت الأديان ، وتنكَّر لها أولاد الحارة أو أهل الدنيا جميعاً كما عرفنا من قبل .

هذه هى **الظاهرة الأُولى** : ظاهرة إدبار الرسالات السماوية إلى الوراء السحيق .

● أما **الظاهرة الثانية** فهى ظاهرة الإقبال الذى يبشر به مؤلف « أولاد حارتنا » هى إقبال أو قدوم ميمون للعلم المادى الحديث :

فبعد أن أنكر مؤلف الرواية على أولاد حارته رضاهم بالذكريات الماضية ، ويعنى بهذه الذكريات ما تركه الرُّسُل الثلاثة الكبار من بعدهم ، من الوحى الأمين ، ووصايا الرسل أنفسهم ، أو وقائع التاريخ الدينى النبوى ؟

بعد أن أنكر عليهم المؤلف هذا الرضا ، راح يومئ إلى فجر جديد فقال :

« ليس من المستحيل أن يقع فى الغد ما وقع بالأمس » ؟!

والذى سيقع فى الغد ليس رسالة سماوية جديدة ، فقد ثبت فشل هذه الرسالات عند المؤلف ؟!

وإنما هو شىء مغاير تماماً لما كان فى الماضى : إنه العلم المادى الحديث ، والفلسفة العقلانية المنبثقة من العلم المادى الحديث ، ويمكن إجمال ما تحمله الرموز فى الفقرات السابقة فيما يأتى :

أولاً : أن الرسالات السماوية بطل مفعولها وخذلها الواقع ، فلا جبل أجدى ولا رفاعة ولا قاسم ، فقد صاروا جميعاً مجرد أسماء ، أو أوهاماً يرددها من لا عقل له ولا تمييز ؟

ثانياً : أن الناس أصابهم اليأس - بعد فشل الرُّسُل - واستسلموا لسيف القضاء والقدر : « المكتوب مكتوب » [1] ، وأنهم صاروا يرون السعادة فى « سَكْرة » فى حانة ، أو « تحشيشة » فى غرزة ؟!

ثالثاً : أن اليأس ولَّد عندهم الإحساس بالحرمان ، فهم فى الدنيا تُعَساءُ ، وليس لهم فى الآخرة إلا النوم السرمدى تحت التراب ؟

رابعاً : أن المؤلف يلوم أولاد الحارة - أهل الدنيا - على رضاهم بترديد الذكريات الماضية - التاريخ الدِّينى النبوى - دون أن يفكروا فى أمرٍ جديد ؟

خامساً : أن فشل الرُّسُل فى تحقيق السعادة للبَشر ولَّد فى النفوس الإحساس بهاتف يهتف فى أعماق البَشر ، ولكن بصوت خافت ويبشرهم ببديل عن ذكريات الماضى :

« ليس من المستحيل أن يقع فى الغد ما وقع بالأمس . . . » .

---

(١) يبدو واضحاً من هذه العبارة أن الأُستاذ نجيب محفوظ مؤلف الرواية ودارس الفلسفة كان - وهو يخط الرواية - ممن يؤمن بأن فى عقيدة القضاء والقدر إهداراً للحريات الشخصية ، ومسلباً لإرادة الإنسان ، متأثراً ببعض كُتَّاب الغرب فى هذا الفهم القاصر ، وله فى الرواية لمزات أُخرى فى القضاء والقدر .

ومعنى هذا أن رواية « أولاد حارتنا » تدعو البَشر إلى طرح الماضى القديم البالى ، ليستقبلوا « فجراً جديداً » يكون رسوله فى هذه المرة « عرفة » وخليفته « حنش » ممثلاً العلم المادى الوضعى الحديث ؟!

كان هذا المدخل ضرورياً فى « جُوَّانيات » الأُستاذ نجيب محفوظ ليمهد لمولد الفجر الجديد ، بظهور عرفة ونائبه حنش فى الحارة التى خيم فى آفاقها الظلام ، وامتلأت بالمتسولين والمشعوذين والمساطيل ؟!

* *

● **ظهور عرفة رمز العلم الحديث :**

مهَّد مؤلف الرواية لهذا « الفجر الجديد » بما قدَّمْنا من إشاراته إلى فشل الرُّسُل الكبار فى ريادة الحياة ، وموت رسالاتهم إلى الأبد .

وعرفة ، وخليفته حنش - رمزان فى « جُوَّانيَّات المؤلف » لمعنيين فيما فهمنا :

المعنى الأول : يرمز المؤلف بـ « عرفة » للمعارف الحسية التى تتولد عن دراسة المادة عن طريق التحليل المعملى والملاحظة والمشاهدة - التجارب - ثم استنتاج القوانين بعد التأكد من صحتها بتكرار « التجارب » ، والمعارف الحسية هى ما كان طريقها واحدة من الحواس الخمس :

الإبصار ، السمع ، التذوق ، الشم ، اللمس . فهذه الحواس عند الوضعيين هى مصدر المعارف ، وما لا يدرك عن طريقها فليس له - عند الوضعيين - وجود إلا فى الوهم ، وإذا كان « عرفة » هو ممثل هذا الاتجاه العلمى الوضعى ، فليس ببعيد أن يكون المؤلف رمز به إلى العالِم الفرنسى « أوجست كونت » خلال القرن التاسع عشر الميلادى (١٧٩٨ - ١٨٥٧) ، وهو رائد الوضعية الحديثة فى أوروبا ، وكان من نتائج وضعيته :

● حصر طرق اكتساب المعرفة فى الحواس الخمس .

● رفض المعرفة الدينية رفضاً قاطعاً [1] .

أما المعنى الثانى : فإنه رمز بـ « حنش » إلى قوة العلم المادى الحديث بما اكتشفه من دقائق وأسرار المادة ، والمخترعات المصنوعة منها ، ومنها أسلحة الدمار التى قدَّمت الرواية نموذجاً منها من صُنْع عرفة وحنش كما سيأتى .

قال المؤلف فى التبشير بظهور عرفة وحنش :

« فى يوم من الأيام - قبل العصر - رأت الحارة فتى غريباً قادماً من الخلاء ، يتبعه آخر كالقزم - أى حنش - وكان أسمر اللون ، حاد البصر ، بادية فى محجريه نظرة قلقة نافذة ، وفى حركاته ثقة واعتداد ، وقف قليلاً أمام البيت الكبير ، ثم تقدم على مهل يتبعه صاحبه » [2] .

هكذا يقدم المؤلف « عرفة » لقُرَّاء روايته : فتى يتمتع بصفات النجابة والذكاء ، ثم الثقة فى النفس والاعتداد بها ، ربما لأن « صناعته » تفوق صناعة أهل الزمن الماضى - الرُّسُل - وهذا المعنى سيصرح به المؤلف فيما يأتى ؟!

ومن قبل ، وفى السطور الأُولى من مقدمة الرواية « افتتاحية » وصف المؤلف « عرفة » هذا فقال :

« عرفة ابن حارتنا البار » [3] .

وهذه العبارة تفيد حصر البر فى « عرفة » وحده من دون أولاد الحارة - الدنيا - جميعاً .

فلم يحظ بهذا الوصف بكل إخلاص إلا « عرفة » ، لم يحظ به أدهم - آدم - ولا جبل - موسى - ولا رفاعة - عيسى - ولا قاسم - محمد - ، ولا حتى « الجبلاوى » نفسه رمز الأُلوهية (الله) فى الرواية ؟!

---

(١) راجع إن شئت كتيب : **العلمانية** وموقفها من العقيدة والشريعة : مكتبة النور بروكسى - القاهرة .

(٢) « أولاد حارتنا » ص ٤٤٩

(٣) « أولاد حارتنا » ص ٧

أليس هذا امتداداً للجفوة التى أشرنا إليها من قبل بين مؤلف الرواية ، وبين المعارف الدينية ، حتى التى لم يمسها تحريف ولا تبديل ؟!

ألم يكن هذا انحيازاً كاملاً إلى أحد طرفى الصراع وإعراضاً كاملاً عن الطرف الآخر ؟

إن المؤلف يُنَظِّر فى هذا الفصل بين المعرفة الدينية ممثلة فى الرُّسُل الكبار ، وبين المعرفة الحسية الوضعية ممثلة فى عرفة وصاحبه وانحيازه لعرفة ، وإقباله نحوه إعراض - لا محالة - عن المعرفة الدينية وإدبار عنها ، والضد يظهر حسنه أو قبحه ضده ، وإن كان ذلك فى خيال الكُتَّاب والأُدباء الوضعيين وحدهم .

والاتجاه الذى يناصره المؤلف ، له جذور تاريخية موغلة فى القدم ومنشؤه قِصَرٌ فى النظر ، وقصور فى العقل ، وخلل فى الفهم .

ورواده - كما قال بعض علماء الغرب : « يحصرون وسائل المعارف فى مضايق الأرض ، ويُعْرضون عن رحابة السماء » - يعنى وحى الله الحكيم الخبير إلى رُسُله المعصومين من الخطأ فى التبليغ ، وهذا القول هو الصواب بعينه :

فقد ظهرت بواكير هذا المذهب الوضعى قبل الميلاد ، إذ ذهب الفيلسوف الإغريقى « بروتا جوراس » (١٤٨٠ ق - ١٤١٠ ق) إلى القول بأن مصدر المعرفة الحقيقى هو الحواس الخمس ، وأما ما لا يقع تحت دائرة الحواس فهو وَهْم وليس له وجود خارج الذهن ؟

وفى الهند وجد مذهب يقال له مذهب « السُّمْنية » خلال القرن الثامن الميلادى كان يرى مثل ما رأى « بروتا جوراس » ، وجرت بينهم وبين جهم ابن صفوان مناظرة فى الإيمان بالله ، فأفحمهم جَهْم فيما يرويه الإمام أحمد ابن حنبل رضى الله عنه .

ثم انتقلت جرثومة هذا المذهب إلى أوروبا على يدى « ڤلوتير» و« چان چاك روسو » ، ثم تبناه « أوجست كونت » رائد الفلسفة الوضعية كما أشرنا من قبل ، وترتب على هذا كله رفض الإيمان بما وراء الطبيعة ، وفى مقدمتها الإيمان بالله ؟

هذا هو المذهب الذى يناصره الأُستاذ نجيب محفوظ ، ويوظِّف الفصل الخامس كله لقبوله والإيمان به ؟!

وليس من المقبول أن يقال : أن هذه الحقائق كانت غائبة عن المؤلف حين خط روايته ، لأن الرجل دارس للفلسفة ، والفلسفة من أبرز أُصولها فى البحث دراسة ما وراء الطبيعة للإيمان أو لرفضه ، والرجل - فيما عرفناه - واسع الاطلاع ، ملم بحضارة العصر ، وما قبل العصر ؟!

* *

● **ساحر لا عالِم** :

قدَّمت الرواية « عرفة » لقُرَّائها فى زىِّ ساحر لا عالِم ، مع أن نشاطه - كما سيأتى - نشاط علمى بحت ، فما السر - إذن - فى هذا الوصف ؟ فكَّرتُ فهُدِيت إلى باعثين للمؤلف على إيثار وصف الساحر على العالِم :

أحدهما : أن هذا الوصف يتسق تماماً مع الأُسلوب الرمزى الذى حشا به المؤلف الرواية من أولها إلى آخرها .

والثانى : أن هذا الوصف قائم على تشبيه مُضمر فى النفس ، عقد فيه المؤلف علاقة حميمة بين العلم والسحر ، ووجه الشبه هو الإعجاب والدهشة فى كل منهما .

فكما أن المشبه به - السحر - معجب ومدهش لمن يُشاهده ، فإن المشبه - العلم - حائز لإعجاب ودهشة من يرى آثاره المذهلة ، فهو ليس علماً تقليدياً يقوم على الحكاية والحفظ والرواية ، وإنما هو علم عملى اختراعى نشط :

تراه فى سيارة تطوى الأرض طياً ، أو قبس من نور يتولد عن إدارة زرار صغير فيبدد حجب الظلام ، أو تراه فى طائرة تحمل أثقالاً من البَشر والأمتعة تسبح فى طبقات الجو بلا حوامل تعتمد عليها . . . إلخ إلخ .

ذلك هو الرابط بين العلم الذى سيأتى به عرفة ، وبين السحر الذى وصف به المؤلف العلم .

فالسحر فى الرواية هو العلم الحديث ، والساحر هو العالِم كيميائياً كان أو فيزيائياً ، أو چيولوچياً ، أو . . أو .

وليست هذه دعوى عارية من الدليل ، بل لها أكثر من دليل من رموز المؤلف العمياء الباصرة ، فخذ إليك - مثلاً - هذا الدليل .

* *

● أين نشأ العلم الحديث ؟

معلوم علم اليقين أن موطن نشأة العلوم المادية الحديثة هو الغرب النصرانى المسيحى ، إنه - بلا جدال - وليد النهضة الأوروبية الحديثة ، هذا حق ، وإن كانت أوروبا قد أخذت أصوله النظرية ، وبعضاً من تطبيقاته الأولية عن العلماء العرب والمسلمين ، وهذا حق كذلك (١) .

ومعلوم أن دول أوروبا تعتنق النصرانية مع الاختلاف فى مذاهبها المعروفة ، وبعد هذا التمهيد تعال ننظر فى عبارة قالها « حنش » لـ « عرفة » ، وهما يتبادلان الحديث :

قال حنش لعرفة بالحرف الواحد :

« ربعنا رفاعى ، كل سكانه رفاعية ، أى رجال رفاعة ، رفاعة الذى تؤكد الرباب كل مساء أنه عاش ومات فى سبيل الحب والسعادة » (٢) .

---

(١) انظر - إن شئت - كتاب « المنهج العلمى فى القرآن » دار المعارف - للمستشار عبد الحليم الجندى ، وكتاب « أثر الإسلام فى حضارة أوروبا » دار المعارف للأستاذ عباس العقاد .

(٢) أولاد حارتنا ص ٤٥٦

أنت تعرف - عزيزى القارئ - أن رفاعة فى الرواية رمز لعيسى عليه السلام ، وأن الرفاعية أو الرفاعيين رمز للنصارى أو المسيحيين ، فانظر فى عبارة « حنش » السابقة تدرك أنه يتحدث عن موطن نشأة العلم الحديث وهو أوروبا المسيحية . أوروبا لم تكن موطناً لنشأة السحر ، فالسحر قديم ، وإنما هى موطن العلم الحديث فى كل مجالاته وأُصوله وفروعه ، أفليس فى عبارة « حنش » هذه الرمزية دليل على أن السحر فى الرواية هو العلم الحديث ، ودليل على أن « عرفة وحنش » يمثلان - رمزياً - عالمين وليسا ساحرين ؟

ودليل آخر :

وفى نفس الحديث الذى دار بين عرفة وحنش - حسب خيال المؤلف - عبارة أُخرى قالها حنش لعرفة دليل آخر على أن السحر فى الرواية هو العلم ، وأن « عرفة وحنش » عالمان لا ساحران .

فقد قال حنش لعرفة :

« حسبك أنك الوحيد فى هذه الحارة الذى يتعامل معه الجميع من جبلية ، ورفاعية ، وقاسمية ، فقال عرفة : لعنة الله على الجميع » ؟! أى على اليهود والنصارى والجرابيع أو المسلمين » ؟ (١) .

هذه العبارة - بدورها - دليل ثان على أن السحر فى الرواية هو العلم الحديث ، وأن « عرفة وحنش » عالمان لا ساحران .

ووجه الاستدلال بالعبارة أن « حنش » نعت « عرفة » بأن الجميع يتعاملون معه :

جبليون ، ورفاعيون ، وقاسميون ، أى : يهود ونصارى وجرابيع أو مسلمون ؟!

وهذا طابع العلم الوضعى الحديث ، وتعامل الجميع مع عرفة يُحْمل على أحد معنيين ، أو عليهما معاً :

---

(١) أولاد حارتنا : ٤٥٦ - ٤٥٧

المعنى الأول : أن يكون مراد المؤلف أن جميع الناس أو الطوائف تستفيد من ثمار العلم الحديث فى مرافق الحياة ، فيدخل التليفزيون والثلاجة والبوتاجاز ، والإنارة الكهربية جميع البيوت والمصانع والمتاجر ، لا فرق بين دين هذا ، ولا ملّة ذاك .

وهذا المعنى ألصق من الآخر بمراد أو « جُوَّانيات » الأستاذ نجيب محفوظ .

أما المعنى الثانى : فقد يكون مراد المؤلف أن قوانين العلم المادى الحديث لا وطن لها ، فهى فى كل البيئات واحدة ، فمثلاً قاعدة سيولة الماء فى درجة الحرارة العادية ، وتجمده ثلجاً إذا انخفضت درجة الحرارة إلى مقدار معلوم ، وصيرورته بخاراً تحت درجة الحرارة المرتفعة إلى حدٍ معين ، هذه القاعدة مطردة فى كل زمان ومكان ، وعند جميع الطوائف الدينية ، بل وعند الملحدين .

وهذا بخلاف المعارف الدينية ، إذ لكل طائفة معارفها الخاصة بها ، وبخلاف الفن والأدب والثقافة ، فهى تختلف من بيئة إلى بيئة ، وإن اشتركت فى بعض العناصر .

أجل : قد يكون المعنى الأول هو المقصود عند المؤلف من هذا الرمز :

« الجميع يتعامل معه » .

وقد يكون المعنى الثانى هو المراد ، وكلا المرادين صحيح .

وقد يكون المراد كلا المعنيين معاً ، وأياً كان المراد هذا أو ذاك ، أو ذاك وهذا معاً ، فإن استدلالنا بهذه العبارة (الذكية) على أن السحر فى الرواية هو العلم الحديث ، وأن « عرفة وحنش » عالمان لا ساحران ، استدلال صحيح لا يتطرق إليه أدْنى شك .

* *

● عليهم اللعنة جميعاً :

هذه العبارة قالها المؤلف الأستاذ نجيب محفوظ على لسان عرفة رداً على قول حنش له :

« حسبك أنك الوحيد فى هذه الحارة الذى يتعامل معه الجميع من جبلية ، ورفاعية وقاسمية » ، ولكن رد عرفة لم يقتصر على هذه العبارة التى جعلناها عنواناً ، بل كان له رد أطول نذكره هنا ، ثم نحاول فَهْمَ « جُوَّانيات » المؤلف من الرمز به .

قال عرفة ، أو قال المؤلف مُحْتمياً بعرفة :

« عليهم اللعنة جميعاً ، كل واحد منهم يفاخر برجُله [١] ، بغباء وعمى ؟! يفاخرون برجال لم يبق منهم إلا أسماؤهم [٢] ، ولا يحاولون قط أن يجاوزوا الفخر الكاذب بخطوة واحدة ؟ أولاد كلب جبناء » [٣] ، هكذا قال المؤلف ورب الكعبة ؟!

فما هو مراد المؤلف من هذه العبارات الوقحة يا ترى ؟ تعال نبحث معاً عن المراد :

● عداء مفتَعَل بين الدين والعلم :

شاع بين فئة من العلماء الوضعيين أن خصومة حادة تحكم العلاقة بين الدين والعلم الحديث ، وأن الدين يرى ما لا يُسَلِّم به العلم ، وقد يرى العلم - وقد هنا للتكثير لا التقليل - ما لا يرى الدين . فالعلم الوضعى المادى عند مَنْ يجعله الطريق الوحيد لكسب المعرفة يرفض رفضاً باتاً الإيمان بما هو خارج

---

(١) أى اليهود يفاخرون بموسى ، والنصارى يفاخرون بعيسى ، والجرابيع أو المسلمون يفاخرون بمحمد ﷺ .

(٢) يقصد أن ما جاء به هؤلاء الرُّسُل الكرام بطل مفعوله وخذله الواقع ؟!

(٣) « أولاد حارتنا » ص ٤٥٧

دائرة الحواس ، ولا يخضع للتجربة والمشاهدة كما أشرنا من قبل ، وإذا وُجِد من يؤمن بالله من هؤلاء الحسيين ، فإنه يقول : إن الإيمان بالله وجميع حقائق الإيمان الأُخرى ، يظل خارج نطاق العلم ، أى لا دليل عليه من العلم ؛ لأن العلم الحسى الوضعى يُنكر وجود أى شىء لا يُدرك بإحدى الحواس ؟!

وقد قرأت لأحدهم عبارة مؤداها : أن العلم الحسى الوضعى لا يثبت وجود الله ولا ينفيه ؟! أى الإيمان بالله مسألة حيادية فى نظر العلم ؟!

إذا وضح هذا فإننا نرجِّح أن مراد المؤلف من سوق العبارة الوقحة التى أسندها إلى « عرفة » تشير إلى هذا العداء المفتَعَل بين الدين والعلم .

وعرفة رمز العلم الحديث قد جسَّم هذه الخصومة فى العبارة التى أسندها المؤلف إليه ؟!

ولا عجب فإن « عرفة » هذا قد سار فى الطريق إلى نهايته فى عدائه للدين إلى درجة أنه قتل « الجبلاوى » رمز الأُلوهية (الله) فى الرواية كما سيأتى إن شاء الله الحى الذى لا يموت .

* *

● **عداء وهمى** :

إن الذين يتصورون عداء مَّا بين الدين والعلم جدَّ واهمون ، وتصور هذا العداء ناشئ عن جهل لحقيقة العلم ووظيفته ، أو ناشئ عن الجهل بالدِّين وحكمته ، أو الأمرين معاً .

ثم إن الذين يتصورون عداء مَّا بين الدين والعلم يُلغون عقولهم ، ويُجَهِّلون العلم نفسه ، فحقائق العلوم طريق عظيم للإيمان بالله وبما جاءت به رُسُله ، وقد قرَّر هذه الحقيقة القرآن الحكيم ، حيث جاء فيه :

﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ (١) ، وليس لفظ العلماء هنا

---

(١) فاطر : ٢٨

مقصوراً على علماء الدين ، بل يتناول بطريق أَوْلى علماء الفلك والكيمياء والطبيعة والنبات والچيولوچيا ، والطب والذرة والبحار ، وسائر فروع العلم العملى ؛ لأن أسرار المادة التى يتوفرون على درسها وتحليلها ومعرفة قوانينها تقودهم على هدىً وبصيرة إلى رؤية (الله) بآثاره العظيمة فى الكون وفى النفس وفى الآفاق .

وحسبنا أن نشير - هنا - إلى عملين جليلين يتعانق فيهما العلم والدين فى أُلفة وانسجام :

أولهما : كتاب « العلم يدعو للإيمان » للعالم الأمريكى كريسى موريسون، نقله إلى العربية الأُستاذ محمود صالح الفلكى. وقد برهن فيه المؤلف على دعوة العلم الحديث للإيمان بالله من خلال سبعة عشر بحثاً فى العلوم الحديثة منها :

الهواء ، والمحيط - الغازات التى نتنفسها - النتروچين : تنظيم مزدوج - غرائز الحيوانات . . إلخ .

والعمل الثانى : كتاب « الله ينجلى فى عصر العلم » تأليف نخبة من العلماء الأمريكيين بمناسبة السنة الدولية لطبيعيات الأرض ، ونقله إلى العربية الدكتور الدمرداش عبد الحميد سرحان ، الأُستاذ بتربية عيش شمس ، والعلماء الذين ألَّفوا هذا الكتاب متخصصون فى شتى فروع العلم الحديث . وقد أثبت كل واحد منهم من خلال تخصصه أن الله كامن وراء كل ذرة من ذرات الكون ، ويكفى أن يقرأ كل منا الموضوع الأول الذى صُدِّرت به موضوعات الكتاب ، وهو : نشأة العالَم ، هل هو مصادفة أو قصد ؟ لكاتبه الدكتور « فرانك ألن » عالم الطبيعة البيولوچية ، فيرى عجائب قدرة الله وحكمته ، ويمتلئُ قلبه اطمئناناً ويقيناً ، ويكاد يرى الخالق العظيم وراء كل حركة وسكنة فى الكون .

وقد فنَّد هؤلاء العلماء شُبهات مرضى العقول الذين يقولون : إن دقة قوانين المادة كفيلة بأن تفسر لنا أسرار الحياة دون حاجة إلى الإيمان بالله ؟!

وعلى هذا الأساس الواهى أقامت العلمانية الجاهلة عشها المنهار وسقطت أكبر دولة تبنت هذا الاتجاه « الاتحاد السوفيتى » بعد سبعين عاماً من القهر والجهل ؛ لأنها قامت على غير أساس ، ثم هوت إلى أسفل سافلين .

ومعذرة ، فقد آثرنا الاستطراد هنا لنبين أن الاتجاه الذى ناصرته « أولاد حارتنا » محكوم عليه بالاندثار ، ونرجو أن يكون مؤلفها قد بان له عوج مذهبه فيها ، ورجع عنه ولو سراً بينه وبين الحى الذى لا يموت .

* *

● المغالاة فى قيمة العلم الحديث :

بعد الذى أشرنا إليه آنفاً ، دلف المؤلف إلى المغالاة فى قيمة العلم الحديث .

يروى المؤلف أن حديثاً دار بين « عرفة » وزوجته « عواطف » :

بدأ الحديث عرفة فقال لعواطف ساخراً من الجبلاوى رمز الأُلوهية (الله) فى الرواية :

« لم أسمع عن مُعمِّر عاش طول هذا العمر » ؟!

فقالت عواطف :

« يقال : إنه يوجد رجل جاوز المائة والخمسين من العمر ، ربك على كل شىء قدير » .

فقال عرفة : « كذلك السحر ، قادر على كل شىء » ؟! (١) .

واضح أن عرفة هنا يغالى فى قيمة العلم الحديث فيجعله - بكل صراحة - نداً لله ، فإذا كان الله على كل شىء قديراً ، كما قالت زوجته عواطف ، فإن عرفة يسارع فيقول لها :

---

(١) أولاد حارتنا ص ٤٨٢

« كذلك السحر قادر على كل شىء » .

والواقع أن مساواة العلم الحديث لله فى القدرة على كل شىء إنما هى مرحلة دنيا عند عرفة ، سوف يتجاوزها حالاً فيرفع العلم الحديث فوق قدرة الله وسعة سُلْطانه تعالى الله عما يقول علواً كبيراً .

* *

● تَبَرُّؤُ من الجبلاوى وتَفَوُّق عليه ؟!

ثم يخلع عرفة ثوب التواضع ويشمخ بأنفه فيتبرأ من الجبلاوى ويرفع قيمة العلم الحسى والوضعى فوق قدره الجبلاوى فيقول :

« ما أنا فُتوة ، ولا رجل من رجال الجبلاوى ؟! ولكنى أملك الأعاجيب . . ومنها قوة لم يَحُزْ عُشْرها جبل ورفاعة وقاسم مجتمعين » (١) .

ها هو ذا جاوز مرحلة التساوى إلى مرحلة التفوق ، فالانتساب إلى الجبلاوى (الله) عار فى نظر عرفة ، أو نظر مؤلف الرواية ، وهو الصحيح ؟ وإذا كان « عرفة » رمز العلم الحديث يملك الأعاجيب (هكذا) ، ويملك قوة لم يمتلكها رجال الجبلاوى الثلاثة : موسى وعيسى ومحمد ﷺ ، فإن الجبلاوى نفسه لم يمتلك عشر تلك القوة ، إذ لو كان يمتلكها لمنحها لرجاله الثلاثة ، حتى لا يتركهم للهزيمة النكراء أمام سحر عرفة أو العلم الحسى المادى وهو الصحيح ؟!

أرأيت إلى أى حد يغالى المؤلف فى قيمة العلم الحديث ، ويحط من قيمة الدين ؟!

* *

---

(١) « أولاد حارتنا » ص ٤٧٢ ، من المُسَلَّم به أن المؤلف هو قائل كل كلمة فى روايته ، سواء أسندها إلى غيره أو نسبها إلى نفسه ، وهذا هو مكمن الخطر !

● العلم الحديث هو الإيمان :

يخطو بنا مؤلف « أولاد حارتنا » خطوات سريعة تجاه النهاية التى يضع العلم الحديث فيها مكان الثريا ، فيروى عبارة قالها عرفة لحنش وعواطف ، وكأنه عاتب عليهما ، ولائم لهما على بعض المواقف . يقول المؤلف على لسان عرفة يخاطب حنشاً وعواطف :

« ما شاء الله ، كأننى أنا الطامع ، وأنتما الزاهدان ؟ أنا الإيمان الذى أصبحتما به تؤمنان » (١) .

إن المؤلف يرشح العلم الحديث - هنا ليحل محل الإيمان بالله ؟!

وإنما خص بهذا الخطاب كلا من حنش وعواطف ؛ لأنهما هما الوحيدان - حتى الآن - اللذان يعرفان صنعة عرفة العلمية الساحرة ؟

وهكذا ينتقل بنا المؤلف من مرحلة دنيا إلى مرحلة عُلْيا ، يضع فيها العلم الحديث :

● نقلنا من مرحلة المساواة بين العلم والله إلى مرحلة التفوق عليه ؟!

● ثم ينقلنا هنا إلى مرحلةٍ يكون العلم الحديث فيها وارثاً للإيمان بعد انهزامه ، ثم يحل محله بعد انعدامه ؟!

فهل نحن مصيبون فيما نقول ؟ أم متجنون على المؤلف ؟ وكيف نكون متجنين ونحن نستخرج هذه النتائج من أقواله ؟

* *

● حشو تمويهى من الصراع بين الطوائف :

توقف المؤلف قليلاً عن الصعود بعرفة إلى حيث أراد له ، وفى أثناء هذا التوقف شغل ذهن القارئ عن متابعة تصعيد عرفة أو العلم الحديث ، شغله بتصوير صراع نشب فى الحارة بين الطوائف الثلاث :

---

(١) « أولاد حارتنا » ص ٥١٤

الجبلية والرفاعية والقاسمية ، وسبب هذا الصراع الذى دوَّى فى الحارة كالقنبلة ، تنافس كل الطوائف على منصب فتوة الحارة ممن يكون ؟

فأخذت كل طائفة تذكر مناقبها ومؤهلاتها لتكون هى الفائزة بالمنصب ، كما يتنافس الآن المرشحون لشغل المقاعد فى المجالس النيابية والتشريعية .

ولكن الصراع سرعان ما تحول إلى استخدام « النبابيت » ، فلا تعرف الضارب من المضروب ، ولا المنتصر من المغلوب ، ثم يتغلب صوت العقل ، فيجرون انتخاباً بين مرشحى الطوائف الثلاث ، ثم يعودون للصراع مرة أُخرى ويكون الرفاعيون آخر المنتصرين فتعلو الزغاريد فى حيهم .

ولكن « الناظر » يعلن إلغاء منصب الفتوة ، فيبدد على الرفاعيين فرحتهم ، ويظهر آل جبل وآل قاسم الشماتة بالرفاعيين ، ولكن الرفاعيين يعارضون قرار الناظر القاضى بإلغاء المنصب ، فيشن عليهم الناظر حملة شعواء ويهزمهم شر هزيمة (١) .

هذا الحشو ما أتى به المؤلف - فيما نرى - إلا للتمويه على القُرَّاء ، وصرف أنظارهم عن حقيقة الموضوع الذى تبنته الرواية فى هذا الفصل نفسه :

وهو حتمية انتصار العلم الحديث على رسالات السماء التى حان لشمسها أن تغيب ، إن كان لها فى الرواية شمس ؟!

* *

● **التجربة المذهلة** :

كان عرفة يعمل فى الخفاء ، ويُجرى تجاربه سراً فى الخلاء حتى لا يعرف حقيقته أحد ، اللَّهُمَّ إلا « حنش رفيقه ، وعواطف زوجته » .

وفى ليلة طارده أولاد الحارة عقب جريمة ارتكبها هو ضد أحد الفتوات ،

---

(١) « أولاد الحارة » ص ٥١٦ - ٥٢٠ ملخصاً .

ولما كادوا يمسكون به أخرج من جيبه زجاجة ، مملوءة بالمواد الحارقة ، الشديدة الانفجار ، كان قد صنعها بيده ، ثم قذف بها نحو مطارديه ، فأنزلت بهم إصابات خطيرة ، ودوَّى الانفجار بقوة فيبدد سكون الحارة ، وأفزع أولادها ، وفتَّ فى عضد « السُلْطة الحاكمة » ، وأصبح الانفجار حديث الساعة فى كل نادٍ ومنزل ومقهى وغرزة .

وقضى هذا السلاح « العلمى الحديث » على نبابيت الفتوات وأبطل مفاعيلها ، فأقبل عهد ، وولى عهد ، ودخلت الحارة فى فجر جديد ، وصحا الناس من غفلتهم ، وتوقفوا عن سرد الحكايات القديمة عن أدهم وجبل ورفاعة وقاسم ، وحتى الجبلاوى نفسه ؟! (١) .

هكذا يصور مؤلف الرواية بداية ظهور العلم الحديث أن من أبرز نتائجه التى أشار إليها المؤلف صرف أولاد الحارة عن الدين ، فلم يعودوا يذكرون الجبلاوى ولا أحداً من رجاله الذين صنعوا التاريخ الدينى النبوى ، فقد غابت شمسهم تحت ضباب كثيف من أبخرة الانفجار المذهل ، ووجه العلم الحديث أُولى طعناته فى صدر الدين والمتدينين على السواء ؟!

ولكأنى بمؤلف الرواية يردد على لسان عرفة هنا قول المتنبى :

وَدَعْ كل صـــوت غير صـــوتى فإنما أنا الصائح المحْكىُّ والآخر الصدى ؟!

إن فى هذا التهويل لتمهيداً لتمكين السيادة للعلم الحديث فى الإدارة والتوجيه ، بل وفى صُنْع عقيدة للناس لا تقر ولا تؤمن إلا بما وقع تحت دائرة الحواس ، وهذا منحى قد نحاه قوم من قبل ، واعتنقته الثورة الفرنسية ، فوضعت الدين فوق « الرف » ، واكتفت بمجرد النظر إليه على أنه « تحفة » من مخلفات التاريخ القديم ، وكان الثوار ينادون قائلين فى ثورتهم على الإقطاع والدين معاً :

---

(١) « أولاد الحارة » ص ٥٠٣ - ٥٠٥ ملخصاً .

« اشنقوا آخر ملك ، بأمعاء آخر قسيس » ؟!

وإذا كان للثوار عذر حينذاك فى غضبهم على رجال دينهم ، لكثرة الجرائم التى ارتكبوها ، وسوء السيرة التى ساروها ، وظلام الجهل الذى سيطر على كل تصرفاتهم ، فليس لمؤلف « أولاد حارتنا » المسلم من عُذر حين يعادى الإسلام وهو برئ ناصع البياض ، ويأخذه بذنب الآثم ، ويخطو خطوات واسعة فى طريق العلمانية الجاهلة .

لقد أخطأ العلمانيون مرتين :

● **مرة** حين حصروا وسائل المعرفة فى العلم المادى الحسى ونفوا ما سواه ، فكفروا بما وراء الطبيعة ، أو كفروا بحقائق الإيمان جملة وتفصيلاً .

● **ومرة** حين قالوا : إن قوانين العلم المادى الحسى كفيلة بتفسير أسرار الحياة وتدبير أمرها ، فكفروا بالله خالقاً ، وكفروا بالله مُدَبِّراً للكون ومن فيه ، وما فيه ؟!

وللأسف الشديد فإن رواية « أولاد حارتنا » من أولها إلى آخرها تلف وتدور حول هذه التصورات الموغلة فى البطلان عقلاً ونقلاً ، وسوف تنتصر فى النهاية - كما سنرى - للاتجاه العلمانى الجاهل ، على وحى الله ودينه وعلى رُسُله الكرام البررة ؟!

فهل - يا ترى - ما يزال أديب مصر والعروبة الأستاذ نجيب محفوظ ، مؤمناً بمضمون أولاد الحارة ؟ أم أن « السنون » الطويلة التى مرَّتْ على كتابة تلك الرواية الآثمة ، قد غيَّرتْ من اتجاهه القديم ، وبدَّلت من نظراته المتشائمة إلى الدين ، فلم يَعُد المسلمون « جرابيع » ولا محمد ﷺ تلميذاً لورقة ، ولا بياع بطاطة يبح صوته من النداء : بطاطة العمدة - بطاطة الفرن ؟!

نأمل - رحمة بالشيخ - أن يكون التغيير قد حدث ، وإ لم يكن فما زالت الفرصة سانحة ، والله يبسط يديه بالنهار ، ليتوب مسئ الليل ، ويبسط يديه

بالليل ليتوب مسئ النهار ، ما دام لم « يُغَرْغِر » أوْ لم « تطلع الشمس من مغربها » .

* *

● احتضان السُّلْطة الحاكمة لحركة العلم الحديث :

كان من أثار التجربة المذهلة لتجارب العلم الحديث ، التى قام بها « عرفة » رمزه فى الرواية ورائده الأول ، كان لتلك التجربة - كما تصور الرواية - ردود فعل بعيدة المدى ، أشرنا إلى بعضها من قبل فى محيط الرأى العام لدى أولاد الحارة أو أهل الدنيا ، وهو الصحيح .

ونشير - هنا - إلى آثارها على المستوى الرسمى ، أو السُّلْطة الحاكمة فى عهد عرفة وحنش .

فقد أظهر مؤلف الرواية العلم الحديث فى صورة المرشح الوحيد لبسط النفوذ فى الأرض ، والسيطرة على مجريات الأُمور فيها .

فها هى ذى السُّلْطة الحاكمة ، ممثلة فى « حضرة الناظر » ترتاع وتلتاع من التجربة المذهلة لثمار العلم الحديث ، فتدعو عرفة وحنشاً وعواطف للإقامة فى القصر الفاخر للأُسرة الحاكمة ، بعد أن كان رائدا العلم وزوجة عرفة يقيمون فى حجرة تحت الأرض (فى البدروم) ، والذى حمل السُّلْطة الحاكمة على هذا التكريم (المصطنع) هو الجبن ، فافتعلت التودد لأُسرة العلم الحديث للأسباب الآتية :

- لكى تتجنب خطره إذا ظل بعيداً عن مراقبتها وسيطرتها .
- لكى تتوصل إلى معرفة أسرار العلم الساحر .
- لتُخضِع مخترعاته لتصرفها ، فتزداد السُّلْطة قوة وسُلْطاناً .

وعلى كره من « عرفة » أمدَّ السُّلْطة بكميات من المخترعات المدهشة ، أما أسرار « المهنة » فقد كان من الصعب أن يحيط بها الناظر ، وفى نظير هذا

تستَّر الناظر على جريمة قتل قام بها عرفة لو علم بفاعلها أهل الحارة لمزقوه وجعلوه طعاماً للقطط والكلاب ، وظل هذا السر سلاحاً فى يد « الناظر » يستذل به عرفة ورفيقه وزوجته .

فيا ترى : من هو الكاسب ومن هو الخاسر فى هذه الصفقة التى تمت بين السُلْطة الحاكمة وعرفة ، أهو السُلْطة أم عرفة .

لا ريب أن الكاسب هو السُلْطة ، فقد اكتسبت بالمخترعات الحديثة سُلْطاناً جديداً ، وقوة لا تقهر .

فلم يعد عرفة يهددها ولا هو خطر عليها ، وسلاحه فى يدها ، كما أصبحت قادرة على تأديب الأشقياء من أولاد الحارة ، وعلى إسكات كل صوت مهما علت حدته ، وإخماد كل فتنة مهما استعرت نارها [1] .

هذا الاحتضان الذى صورته الرواية هذا التصوير له عند المؤلف مغزى واحد ، ولكنه ثقيل الوزن .

إنه يريد أن يقول :

« من ملك العلم الحديث فقد ملك كل شىء فى الوجود » ؟!

أما تاريخ الجبلاوى وأدهمه ، وجبله ورفاعته وقاسمه ، فقد ولى مع ريح فى يوم عاصف . . وإلى الأبد ؟!

* *

● الانتقال من الاحتضان إلى السيطرة :

وتخطو السُلْطة الحاكمة خطوة أُخرى ، فتسيطر على ثمار العلم الحديث ، ويهيئ المؤلف « الجو » النفسى لقراء روايته ، ثم يدلف بهم إلى سيطرة السُلْطة الحاكمة على « ثمار العلم الحديث » ، وفى هذه التهيئة يقول المؤلف :

---

(١) « أولاد الحارة » ص ٥٠٦ - ٥١٣ ملخصاً .

إن عرفة و« حنش » وعواطف ملُّوا الإقامة فى القصر الفخم الذى نزلوا فيه ، وشعروا أن الطاقم الذى عيَّنه الناظر لخدمتهم إنما هم « مراقبون » أو « جواسيس » فى زى خَدَم ، فكل حركة وكل همسة محسوبة عليهم ، فتحوَّل القصر فى نظرهم إلى « معتقل » ، فلجأوا إلى الهروب ، هربت عواطف أولاً ، ثم هربا هما ، ارتاع الناظر والتاع من هروب عرفة ورفيقه وزوجه ، فأحكم الناظر قبضته على المنافذ والمداخل ؛ لأن نجاة عرفة وحنش سيسبب قلقاً للسلطان .

ويتم القبض على عرفة رمز العلم الحديث فى الرواية ، ويُدْفَن هو وعواطف فى التراب وهما حيَّان ، لتسيطر السُلْطة على ثمار العلم الحديث !

ولكن أين حنش ؟ وأين سجل المهنة المدوَّنة فيه أسرارها ؟

اختفى حنش ومعه سجل أسرار المهنة ، ولم يهتد إليه أحد ؟!

فتضاعفت هموم الناظر ، واشتد قلقه ، إذ من الممكن أن يعود يوماً ما فيقضى على كل شىء فى الحارة .

ولم يقتصر الخوف على السُلْطة الحاكمة ، بل عم أولاد الحارة كلهم وكانوا قد رأوا من قبل بشاعة الانفجار المدمر ، الذى قام به عرفة ، وأصبح الشر المتوقع مخيماً على كل القلوب .

وضاعف من حجم الخوف والقلق أن بعض شباب الحارة كان يختفى يوماً بعد يوم ، فظن الناظر وأولاد الحارة أنهم انضموا إلى حنش للقيام بأمر خطير [1] .

ومغزى هذا الكلام هو تأكيد ما قلناه من قبل :

« من ملك العلم الحديث فقد ملك كل شىء فى الوجود » .

---

(١) « أولاد الحارة » ص ٥٤١ - ٥٤٧ ملخصاً .

فحنش يخيف السُلْطة الحاكمة ، ويخيف أولاد الحارة ، وهو فرد واحد ؟ وليس هذا بغريب فى الرواية ؛ لأن « حنش » ملك كل شىء فى الوجود ؛ لأنه ملك العلم الحديث .

إن رواية « أولاد حارتنا » اتخذت من العلم الحديث إلهاً يعبد من دون الله - خوفاً لا طمعاً - وما تزال الرواية تغذيه وتقويه وتعظم من شأنه فى وجدان قرائها ، حتى إذا جاء الوقت لإحلال العلم الحديث محل الإيمان بالله - وهذا ما فعلته الرواية كما سيأتى - حتى إذا جاء ذلك الوقت آمن به المخدوعون ، وسوقة المعرفة وضعاف العقول .

وعما قريب ستفصح الرواية عن هذا المصير ، ويظهر المعنى الضخم المدفون وراء رموزها ، وعمليات الفر والكر فيها .

* *

● **انحياز أولاد الحارة** :

وهذه خطوة جديدة هيأت الرواية لها الأذهان ، فقد آمنوا مفتونين بالعلم الحديث ، وفى ذلك يقول الأستاذ نجيب محفوظ مؤلف « أولاد حارتنا » :

« فلم يعُد أحد يشك فى الدور المنتظر أن يلعبه حنش فى حياتهم ، وارتفعت فى الأنفس موجة استبشار وتفاؤل ، قذفت بعيداً بزبد القنوط والخنوع ، وامتلأت القلوب عطفاً على حنش فى مهجره المجهول ، بل امتد العطف إلى ذِكْرى عرفة نفسه ، وتمنَّى الناس لو يتعاونون مع حنش فى موقفه ، وصمموا على التعاون ما وجدوا إلى ذلك سبيلاً ، باعتباره السبيل الوحيد إلى الخلاص » ؟! (١) .

أليست هذه خطوة جديدة وجريئة فى سُلَّم الصعود بالعلم الحديث ؟

---

(١) « أولاد حارتنا » ص ٥٥١

ثم قف مَلِيّاً أمام هذه العبارة التى ختم بها المؤلف الفقرة المذكورة :

« **باعتباره السبيل الوحيد للخلاص** » ، ثم ابحث فى ظل هذه العبارة عن التوجيه الإلَهى ، وكتبه المنزَّلة ، وهداية رُسُله للناس ، ابحث عن ذلك كله فى ظل هذه العبارة ، فإنك لن تجد شيئاً مما ذكرناه ، فالعلم الحديث هو صاحب السُّلْطة العليا فى هذه الحياة ؟!

إن الصراع المفتعل بين الدين والعلم الحديث ، بدأ متأخراً فى الرواية ، ولكنه على الرغم من هذا العمر الصغير حقق فى الرواية انتصارات هائلة على الدين - كما ترى - ولكنها انتصارات فى خيال المؤلف ، ولها - عنده - سببان :

أحدهما : فشل الدين فى المجالات التطبيقية .

والثانى : القُدْرة الفائقة للعلم الحديث على تحقيق السعادة للبَشر جميعاً .

يقول المؤلف بالحرف الواحد :

« وبدا أنه لم يبق لهم إلا الخضوع ، وأن يعتبروا الوقف وشروطه ، وكلمات جبل ورفاعة وقاسم أحلاماً ضائعة قد تصلح ألحاناً للرباب ، لا للمعاملة فى هذه الحياة » (١) .

لقد غالى المؤلف - هنا - فى الحط من شأن الرسالات السماوية ، واتبع هواه ، وقال شططاً ، وجنى حمقاً وسفاهة ، وزيَّن له الشيطان باطلاً من القول وزوراً ؟!

إن قارئ هذه الدراسة يعلم ما هو الوقف فى الرواية ؟ وما هى شروطه ؟

ويعلم من هو جبل ، ومن هو رفاعة ، ومن هو قاسم ، الوقف هو الخلافة فى الأرض لحراسة الدين وسياسة الدنيا .

---

(١) « أولاد حارتنا » ص ٥٤٨

وشروطه العشرة هى المذكورة فى آيات الأنعام المبدوءة بقوله تعالى :

﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَن لاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً ﴾ (١) .

وجبل ورفاعة وقاسم هم : موسى وعيسى ومحمد ﷺ ، كل هذا قد محاه الكاتب ، وجعله أحلاماً ضائعة ، لا تصلح للحياة ، إلا أن تكون ألحاناً ينشدها شعراء الرباب فى المقاهى والغرز ؟!

إن هذا الكلام ليدعو قُرَّاء الرواية إلى سوء الظن بكاتبها ، وأن يذهبوا بسوء الظن إلى أبعد مدىً ، وهم معذورون ، معذورون إذا ذهبوا مع سوء الظن به إلى نهاية الشوط ، فقد مهَّد هو الطريق إلى سوء الظن ، وكفى بقوله المتقدم إنما تنوء بحمله الجبال ، ولكن الإنسان كان ظلوماً جهولاً .

إن الشيطان نفسه لم يقل فى كتب الله المنزلة على رُسُله هذا القول ؟

وكفرة قريش - وهم فى ذروة العداء للإسلام - لم يقولوا فى كتاب الله المنزل هذا القول ؟

فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، ربنا ارفع مقتك وغضبك عنا ، يا أرحم الراحمين .

* *

● المعنى الرمزى لقتل أو موت الجبلاوى ؟!

قلنا مرات : إن الجبلاوى فى رواية أولاد حارة نجيب محفوظ هو رمز الأُلوهية (الله) ، والمؤلف يعلم ذلك علم اليقين ، وكل من قرأ روايته ببصر يدرك هذا تمام الإدراك ، إلا من كان على بصره غشاوة وفى أُذنيه وقر ، وعلى قلبه رين وأكنان ؟!

وما دام الأمر كذلك ، فكان من أوجب الواجبات على المؤلف أن يعرف

---

(١) الأنعام : ١٥١ - ١٥٣

لهذا الرمز حقه ، فلا يحيد عنه قيد أنملة مهما لعب به الخيال وزين له الهوى .

ولكن الرجل أطلق ألسنة بعض أولاد حارته ، مثل إدريس الذى هو رمز لإبليس ، ومثل قدرى الذى هو قابيل بن آدم ، أطلق ألسنة هؤلاء بأقذع السباب والشتائم للجبلاوى - وهو فى الواقع الساب الشاتم ، ثم أجرى عليه أحكام البَشر من التزوج والإنجاب والأكل والشرب والنوم والاحتياج . وهذا إلحاد فى أسماء الله وصفاته ، وفيه يقول الحق تعالى :

﴿ . . وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِى أَسْمَائِهِ ، سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (١) .

لم يكتف المؤلف بما تقدمت الإشارة إليه من القذف والسباب ، بل قضى على « الجبلاوى » بالقتل ؟!

ومن الذى قتله ؟ عرفة ؟

وأصبح أولاد الحارة يُعَزِّى بعضهم بعضاً فيقول المعزِّى للمعزَّى : « لله الأمر ، من بعد العمر الطويل مات الجبلاوى ؟! (٢) .

هكذا كتب الكاتب ، وهكذا يقرأ القارئ ، فإلى أى شىء رمز الكاتب بواقعة قتل الجبلاوى ، وأن القاتل عرفة ؟

من البديهى أن المؤلف لم يقصد المعنى الحقيقى للقتل ، وهو إزهاق الروح ، ولكن المعنى المقصود من هذا الرمز :

(قتل عرفة الجبلاوىَّ) .

أن ظهور العلم الحديث أبطل « مفاعيل » الدين إبطالاً كاملاً شبيهاً بالقتل الذى يُزيل المقتول من الوجود ، ويُوارى جثمانه تحت الثرى ؟!

---

(١) الأعراف : ١٨٠ ، وقد أخرنا قتل الجبلاوى إلى هنا ، لأن له صلة كبيرة بالنهاية المرادة من الرواية كلها .

(٢) « أولاد الحارة » ص ٤٩٠ - ٤٩٩

أى لم يبق للدين المتمثل فى الرسالات السماوية مكان فى الحياة ، هذا هو المعنى المقصود للمؤلف ولا مقصود سواه ورب الكائنات ؟!

* *

● **صدى قتل أو موت الجبلاوى :**

ارتاع أولاد الحارة والتاعوا عقيب الحادث (الأليم) مباشرة ، ثم بدأوا يلتقطون أنفاسهم ، وبَيَّنوا أنهم لم يفقدوا شيئاً ذا بال بموت الجبلاوى أو قتله ، جدهم المبارك كما تسميه الرواية .

وكيف يستسلمون لليأس والقنوط ، ولديهم العزاء الجميل ، أو لديهم البديل ؟! عزاؤهم الجميل ، والبديل المفضل هو العلم الحديث ، الذى بدأت الساحة تخلو له تماماً ؟

فقد قالت لهم الرواية من قبل : إن عرفة قال :

« أنا عندى ما ليس عند أحد ، ولا الجبلاوى (الله) نفسه ؟ عندى السحر ، وهو يستطيع أن يحقق لحارتنا ما عجز عنه جبل ورفاعة وقاسم مجتمعين » ؟! (١) .

فما دام عند عرفة ما ليس عند الجبلاوى (الله) ؟ وما دام عرفة يستطيع أن يحقق بالعلم الحديث للحارة أو الدنيا ما لم يستطع تحقيقه موسى ولا عيسى ولا محمد ، فليكن هو العزاء الجميل ، وليكن هو البديل ؟ ، ثم قالت الرواية : إن عرفة قال :

« لكنها علمتنى أنه لا ينبغى أن نعتمد على شىء سوى السحر الذى بين أيدينا » (٢) .

والسحر ، وهو العلم الحديث ، باق بعد موت الجبلاوى ، فعلام يحزن أولاد الحارة ؟!

---

(١) « أولاد حارتنا » ص ٤٩٨ (٢) « أولاد حارتنا » ص ٤٩٧

● **عرفة والإلحاد :**

والحق يقال : إن عرفة لم يكن مجرد بديل للعزاء ، بل دعا أولاد الحارة من قبل إلى الشك فى وجود الجبلاوى (الله) نفسه ، وقال لهم : إن العلم الحديث ينفى وجود الجبلاوى (الله) ، هكذا قالت رواية « أولاد حارتنا » فاسمع لقولها :

« عرفة : « وحجرتى الخلفية علمتنى ألا أؤمن بشىء ، إلا إذا رأيته بعينى ، وجربته بيدى » ؟! (١) .

وحجرة عرفة الخلفية هى معمله الذى يجرى فيه التجارب ، وعرفة ومعه أولاد الحارة - الدنيا - جميعاً لم يَرَوْا الجبلاوى (الله) بأعينهم ، ولم يجربوه بأيديهم ، فهو - إذن - غير موجود فى نظر عرفة ، وهذا ما قاله عرفة لأولاد الحارة ، فعلام - مرة أُخرى - يحزنون ؟!

هذا الكلام كلام الأُستاذ نجيب محفوظ ساقه على لسان عرفة ، أفلا نفهم من هذا أن الكاتب حين خط روايته هذه كان مشبعاً بالفلسفة الإلحادية التى نتجت عن تطور العلم الحديث عند بعض قصار النظر من العلماء الوضعيين أمثال « ڤولتير » و« چان چاك روسو » و« أوجست كونت » ؟!

* *

● **عرفة وإحياء الجبلاوى :**

كاتب الرواية « أولاد حارتنا » مفرط الثقة فى العلم الحديث إلى أبعد مدى ، ومعلوم أن كل كلمة قالها فى هذه الرواية هى من كلامه ، وإن نسبها إلى إدريس « إبليس » أو قدرى « قابيل » أو عرفة « العلم الحديث » ، هذا أمر لا جدال فيه ، وهذه هى طبيعة الفن الإنشائى ؛ الذى تنتمى إليه رواية « أولاد الحارة » ، وإن كان موضوعها تاريخاً كما تقدم .

---

(١) « أولاد حارتنا » ص ٤٨٧ ، سطر ٧ - ٨

وقد قال المؤلف محتمياً برمز « عرفة » فى الإشادة بقدرات العلم الحديث :

فقال عرفة بحماسة :

« السحر - أى العلم الحديث - لا نهاية له ، وليس بين يدى اليوم منه إلا بعض الأدوية . . أما ما يمكن أن يوجد فلا يحيط به خيال » [1] ؟!

عبارة فخمة واسعة ، متفائلة تضع العلم الحديث فى درجة (إله) إن جاز هذا التعبير .

وما دام العلم الحديث بهذه « المكانة » ، فلا عجب أن ينسب المؤلف عبارتين لعرفة بأنه يفكر فى إعادة الحياة مرة أُخرى إلى الجبلاوى ؟!

إحدى العبارتين تقول :

« تعليم كل فرد السحر وفنونه وفوائده لا يكفى ، شىء واحد يكفى ، هو أن يبلغ من السحر الدرجة التى تمكنه من إعادة الحياة إلى الجبلاوى » ؟! [2] .

والعبارة الثانية تقول :

« سأعمل يا حنش ، لا تخف علينا . . ستقع عجائب ، وستكون ذروة العجائب أن تعود الحياة إلى الجبلاوى . . » [3] .

ومن قبل قال عرفة أو المؤلف محتمياً به : « إن السحر قادر على كل شىء » .

وقال :

لدى ما ليس عند أحد ، ولا حتى الجبلاوى نفسه ؟؟ [4] .

فإعادة الحياة إلى الموتى ليس ببعيد فى « أولاد حارتنا » ، وعند مؤلفها . وهنا يرد سؤال مهم :

---

(١) أولاد حارتنا ص ٤٩٧ (٢) أولاد حارتنا ص ٥٠٢

(٣) أولاد حارتنا ص ٥٠٣

(٤) هذه العبارة والتى قبلها نقلناهما من قبل ، وذكرنا موضعهما فى الرواية .

ما المراد من تفكير عرفة فى إعادة الحياة إلى الجبلاوى ، وهو الذى قتله من قبل ؟

الجواب :

هذه الفكرة تفيد واحداً من أمرين :

أحدهما : أن يكون المراد منها التنبيه على « غرور بعض علماء العلم الحديث ، والإشارة إلى انخداعهم به » .

والثانى : إفراط الثقة فى طاقات العلم الحديث ، وأنه قادر على كل شىء ؟!

والاحتمال الأول مستبعد - هنا - وإن كان صحيحاً فى الواقع ، لأن مؤلف الرواية مفتون بالعلم الحديث حتى ليكاد يعبده من دون الله .

فلم يبق - إذن - إلا الاحتمال الثانى ، وهو أن طاقات العلم الحديث لن تقف عند حدٍ ، ولن تعرف شيئاً اسمه المستحيل ؟!

وإنى - وإن كنت الأخير زمانه - لآتٍ بما لم تستطعه الأوائل ؟!

وفى إمكان إحياء عرفة الجبلاوى - فى الرواية - إيماء رمزى شديد الخفاء ، هو - كما تصورناه - إعلاء شأن العلم الحديث على الدين أو حقائق الإيمان ، وتمكنه منها إعداماً وإيجاداً ؟!

وإذا كان هذا هو مقصود الأُستاذ نجيب محفوظ، فإننا نقول له : « لو عصمت فنَّك وخيالك وعقلك بوحى الله الصادق الأمين المنزل على خاتم النبيين لما هويت من شاهق هذا الهوى ، ولما زلنت قدمك هذا الزلل :

إحياء الموتى خَلْق جديد لهم ، وليس فى الكون خالق إلا الله .

وهو وحده :

﴿ لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ . . ﴾ (١) .

---

(١) الأعراف : ٥٤

والإحياء والإماتة تصرف فى الروح إدخالاً وإخراجاً ، والروح من أمر الله وحده :

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ، قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ، وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ (١) .

فهل وقف العلم القديم أو الحديث على حقيقة الروح ؟ لا . . ولن ، فكيف يخضع العلم الحديث الروح لتجاربه وهو لا يعلم - ولن يعلم - من أمرها شيئاً ؟!

وربك الكبير المتعال تحدى المخدوعين والمفتونين مهما اختلفت أسباب خداعهم وفتنتهم ، تحداهم فرادى ومجتمعين أن تكون لهم قدرة أو علم فيخلقوا ذبابة حقيرة :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ، إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً - وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ - وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لاَّ يَسْتَنْقِذُوه مِنْهُ ، ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾ (٢) .

يا أستاذ نجيب :

أتدير ظهرك لكتاب ربك العاصم من كل ضلال ، وتجعل قبلتك وَهْماً ، مثل من يبحث عن قُبَّعة سوداء لا وجود لها فى غرفة مظلمة ، كما تقولون أنتم يا معاشر الفلاسفة ؟!

أرأيت لو كنت اعتصمت بكتاب الله ، أكنت تهوى هذا المهوى ، وتخر من شاهق كما خررت ؟

* *

(١) الإسراء : ٨٥ (٢) الحج : ٧٣

● **تجربة « ستالين » :**

ونذكرك مجرد تذكير بتجربة ستالين ، وظنى أنك تعرفها ولكنك لم تستفد منها :

وخلاصة تجربة « ستالين » : أنه أراد أن يدعم كفره وإلحاده ببعث الحياة فى قطعة تؤخذ من « الجماد » : طوبة ، أو حجر ، أو تراب ، أو رمل ، أياً كان شكل الجماد .

فأنشأ لهذا الغرض أكاديمية للبحث العلمى ، وَوَكَلَ بالعمل فيها لنخبة مشهود لها بالكفاءة من علماء الطبيعيات ، وأغدق لهم فى الرواتب والحوافز والمكافآت ، وهيأ لهم كل أسباب الملذات والمتع المباح منها والمحظور ، وعرَّفهم من أول يوم بأن مهمتهم هى أن يبعثوا الحياة فى أى كائن غير حى ؟!

وظل العلماء يواصلون العمل ليلاً ونهاراً ، ويجرون التجارب ويكررونها ، ويستبدلون جمادا بجماد ، وبذلوا كل طاقاتهم العلمية والعملية والمعملية ، وكان سعيهم يبوء بالخيبة والفشل عقب كل تجربة يجرونها ، ولكن بلا جدوى إلا الخيبة .

وبعد عشرين عاماً من العمل الدءوب المتواصل كتبوا تقريرهم النهائى ، سجلوا فيه عجزهم التام عن تحقيق المهمة التى كلَّفهم بها « ستالين » ، ولكنهم أضافوا إلى التقرير عبارة وارَوْا خلفها خيبتهم ، تلك العبارة تقول :

« ولكن يمكن إعادة البحث إذا أمكن إحضار قطعة صخر ، أو تراب من كوكب آخر غير كوكب الأرض » (١) .

عبارة كاذبة ، لأن روسيا بعد ذلك غزت القمر ، وأحضرت منه صخوراً وتراباً ، فلِمَ لم يكرروا التجربة ، ويخلقوا ولو نملة أو حتى بعوضة ؟!

---

(١) هذه العبارة صياغة معنى لا إيراد نص ؛ لأنى أكتب من الذاكرة ، ومصدر المعلومة ليس لدى - الآن - هو فى القاهرة ، وأنا أكتب بمكة المكرمة .

يا أستاذ نجيب : ألم تكن أكاديمية « ستالين » للبحث العلمى واحدة من « مؤسسات » عرفة المنتشرة فى دول الحضارة الحديثة ؟! ثم ألم تقع هذه « التجربة » الخائبة جداً قبل أن تكتب أنت روايتك « أولاد حارتنا » ؟!

أما كان لك فيها عبرة تعصمك مما هويت فيه ؟!

* *

● **وراثة شرعية :**

حرصت رواية « أولاد حارتنا » على تبرئة عرفة ، أو العلم الحديث من كل مأخذ وجريرة ، فقد يظن ظان ، أو يعتقد معتقد أن فى الانتصار للعلم الحديث ، وإحلاله محل الإيمان بالله عند من ضلَّ منهم وذهب هذا المذهب . أقول مرة أُخرى :

قد يظن ظان ، أو يعتقد معتقد أن فى إعلاء شأن العلم الحديث وحصر وسائل المعرفة فيه ، ونزع الثقة عن المعرفة الدينية تطاولاً على الدين ، وإبعاداً له بغير حق ؟ هذا الهاجس أو الاحتمال عالجه مؤلف « أولاد حارتنا » بلقطة بارعة من لقطات الخيال :

قال فيما يحكيه عن عرفة ما خلاصته [1] :

إن امرأة عجوزاً جاءت فى إحدى الليالى واستوقفته ، فأعرض عنها فى بادئ الأمر ، ثم استمع إليها ، فأخبرته بأنها خادم الجبلاوى ، وأن « المرحوم » ترك له وصية عندها وأمرها أن توصلها إليه - إلى عرفة - والوصية تقول بالحرف كما فى الرواية :

« اذهبى إلى عرفة الساحر - يعنى العالِم - وأبلغيه عنِّى أن جَدَّهُ مات ، وهو عنه راض » ؟! [2] .

---

(١) « أولاد حارتنا » ص ٥٣٦ - ٥٤٠ ملخصاً . (٢) « أولاد حارتنا » ص ٥٣٨

وأن عرفة تحرَّى الخبر فوجده صحيحاً ؟!

* *

● **ما معنى هذه الوصية :**

وقفت طويلاً أمام ورود هذه الوصية فى أُخريات الرواية ، ثم خطر لى خاطر أسجله - هنا - لعلى أكون مصيباً فيه :

إن هذه الوصية - الوهمية - ما هى إلا تعاطف مع العلمانيين الذين يزعمون أن قوانين المادة - الكلية والجزئية - كافية وحدها فى تفسير أسرار الحياة ، ونشأة الكون وتدبير أُموره ، ولا ضرورة تدعو للإيمان بوجود « إله » خارج نطاق الحس ؟! ، فجاء مؤلف « أولاد حارتنا » ليقول :

« إن ولاية العلوم الوضعية الحديثة ، وإحلالها محل الإيمان ، إنما هى ولاية شرعية ، ووراثة نظامية لا غاصبة ، رغم أن « عرفة » قتل الجبلاوى الرمز الدينى الكبير ، ومحال أن يكون المؤلف ليس له منها هدف ، فإن ذكاءه وهندسته التعبيرية الماهرة تقضى بأن يكون له معنى « جوانى » من كل كلمة ، ومن تركيب طال أو قصر .

وقد رأينا من بداية هذا الفصل (عرفة) كيف بلغ الاهتمام بـ « عرفة » رمز العلم الحديث ، فقد أولاه عناية فائقة ، وأخذ ينتقل به من طور ضعيف إلى طور قوى ، ومن طور قوى إلى طور أقوى ، حتى كاد - وسيفعل قريباً - أن يجلسه على عرش الرحمن ، بعد أن خلا ذلك العرش - فى الرواية لا فى الواقع - من استواء الرحمن عليه ؟!

* *

● **الإيمان بالعلم الحديث :**

ها نحن أو لاءِ نقترب من النهاية ، أو اقتربنا فعلاً من نهاية رحلتنا الشاقة مع الأستاذ نجيب محفوظ ، وأولاد حارته ، وقد أدركنا هدفه منها ، و« جوانياته »

فيها ، وسرنا معه أشواطاً بعيدة المدى ، نقرأ ونفحص ونتأمل ، ونفهم ، ونبحث عن الأدلة ، والشواهد والبراهين التى تقطع - فى يقين راسخ - بصحة الفرض أو الفروض التى افترضناها منذ البداية ، عن الموضوع الذى لفَّت ودارت حوله الرواية « أولاد حارتنا » ، أو « التاريخ الدينى النبوى » ، والخصومة « المفتعلة » بين الدين والعلم الحديث ، عند فئة من العلماء الوضعيين .

وقد أثبتنا عشرات الأدلة من أقوال المؤلف ، وفككنا من رموزه ما نحن فى حاجة إليه فى الاستدلال ، وكان لنا فى كل كلمة شاهد ، وفى كل جملة دليل ، وفى كل فقرة برهان ، ولم يُخيِّبْ الله رجاءنا ، ولا أوصد طرق الفهم أمامنا ، بل إن الفضل ليرجع إليه وحده ، فقد منحنا صبراً جميلاً على القراءة المتأنية المتكررة للرواية « أولاد حارتنا » ، وأعاننا على فك رموزها :

سهلها وصعبها ، يسيرها وعسيرها ، قريبها وبعيدها ، ولولا فضله - سبحانه - لضللنا بين تعاريجها ، ومطباتها ونتوءاتها ومضايقها ، فللّه - وحده - الحمد فى الأُولى والآخرة .

والعنوان الذى أثبتناه فى أعلى هذه الصفحة « الإيمان بالعلم الحديث » هو الخطوة ألـ « قبل الأخيرة » فى الصعود بالعلم الحديث فى رواية « أولاد حارتنا » ، وستليها الخطوة الأخيرة الحاسمة بعد قليل .

أما هذه الخطوة ، فننقل كلام المؤلف فيها ، ليشترك معنا القارئ فى الفهم وفى الحكم الذى سنصدره لهذه الرواية أو عليها ، هذا من جهة ، ومن جهة أُخرى ليعلم قُرَّاء هذه الدراسة ، أننا لم نظلم المؤلف فيما ذهبنا إليه ، ولم نتجاوز حدود الفهم المقبول والمعقول فى تصيُّد « جوانياته » ساعة كتب هذه الرواية منذ أكثر من ثلاثين عاماً ، والآن تعال ننظر معاً فى كلامه الآتى :

« ومن عجب أن تَلَقَّى الناس أكاذيب الرباب بفتور وسخرية ، وبلغ منهم العناد أن قالوا :

« لا شأن لنا بالماضى ، ولا أمل لنا إلا فى سحر عرفة ؟!

« ولو خُيِّرنا بين الجبلاوى والسحر لاخترنا السحر ؟!

« ويوماً بعد يوم ، مضت حقيقة عرفة تتكشَّف . . أن الناس عرفوا الرجل - يعنى عرفة - وما كان يَنْشدُه من وراء سحره للحارة ، من حياة عجيبة ، كالأحلام الساحرة ، ووقعت الحقيقة من أنفسهم موقع العجب ، فأكبروا ذِكْراه - ذِكْرى عرفة - ورفعوا اسمه حتى فوق أسماء :

جبل ، ورفاعة ، وقاسم ؟!

وقال أناس : لا يمكن أن يكون (عرفة) قاتل الجبلاوى كما ظنوا ، وقال آخرون : إنه رجل الحارة الأول والأخير ؟!

ولو كان هو قاتل الجبلاوى ؟!

وتنافسوا فيه ، حتى ادعاه كل حى لنفسه » ؟! (١) .

كلام المؤلف - هنا - واضح كل الوضوح فى كراهية ما أنزل الله على رسله ، والحط من شأنه ، ثم الإيمان الراسخ بالعلم الحديث ممثلاً فى « عرفة » والمناداة بتسليم قيادة الحياة له بعد فشل الرسالات السماوية ، الذى ادعته الرواية ؟!

وقد وصل الأُستاذ نجيب محفوظ بأولاد الحارة ، أو البَشر جميعاً فى الدنيا كلها ، وصل بهم كما جاء فى هذه الفقرة إلى المصائر الآتية :

- زهدهم ، أو قل كفرهم بـ « الجبلاوى » المرموز به فى الرواية إلى « الله » .
- إيمانهم بـ « عرفة » المرموز به فى الرواية إلى العلم الحديث ، حتى لو كان عرفة هو الذى قتل « الجبلاوى » الرمز الدينى الكبير فى الرواية .
- انخلاعهم عن الماضى أو التاريخ الدينى النبوى انخلاعاً كاملاً ؟!

---

(١) « أولاد حارتنا » ص ٥٠١ - ٥٠٢

الإعجاب المذهل بـ « عرفة » أو العلم الحديث ، وتعليق كل آمالهم به ، لا بأحد سواه ؟!

هذه الغايات التى أوصل إليها الأُستاذ نجيب محفوظ سكان الدنيا كلها - مع خطورتها فى نفسها - فإنها ليست كل شىء لأنها وسائل إلى غاية أُخرى أجل وأعظم من هذه الغايات ، حتى صارت هذه الغايات وسائل بالنسبة لها . تلك الغاية الأجل الأعظم هى :

إحلال العلم الحديث محل الإيمان بالله ورُسُله ؟!

والدليل قول المؤلف بالحرف الواحد ، بلا زيادة ولا نقص ، وهاك قوله :

« إن كلمة من جدنا ، كانت تدفع الطيبين من أحفاده ، إلى العمل حتى الموت ، موته أقوى من كلماته ؟ إنه يوجب على الابن الطيب :

« أن يفْعل كل شىء » ؟!

« أن يحل محله » ؟!

« أن يكونه » ؟!

« أفهمت » ؟! (١) .

نعم : **فهمنا يا نجيب :**

فهمنا : أن الابن الطيب هو « عرفة » أى العلم الحديث ؟

وفهمنا : أن العلم الحديث على كل شىء قدير ؟!

وفهمنا : أن العلم الحديث ينبغى أن يحل محل « الله » ؟!

وفهمنا : أن العلم الحديث ينبغى أن يكون هو « الله » ؟!

وفهمنا : أن هدفك من تأليف هذه الرواية هو هذه الكلمات ؟!

* * *

---

(١) « أولاد حارتنا » ص ٥٠٣

الخـــاتمة

ها نحن قد فرغنا من هذه الرحلة الطويلة الشاقة ، التى قمنا بها تجاه الأُستاذ نجيب محفوظ ، وأولاد حارته ، ويطيب لنا فى « النهاية » أن نسجل أمرين مهمين :

أولهما : تقرير موجز عن « رواية أولاد حارتنا » يلمُّ شعث ما تقدم ، ويستخلص أبرز ما فيها من ملاحظات .

والثانى : اقتراح نرفعه إلى المؤلف الأُستاذ نجيب محفوظ من باب « التواصى بالحق » ، وهو من صفات المؤمنين بالله ورسوله .

أولاً - التقرير :

بكل موضوعية وصدق وإخلاص نقول :

● إن موضوع هذه الرواية « أولاد حارتنا » يتكوَّن من قسمين اثنين :

الأول : ويبدأ من « افتتاحية » أو مقدمة الرواية ، ويستمر حتى الفصل الرابع ، أو هو تفصيلاً :

١ - المقدمة .

٢ - أدهم ، أى آدم عليه السلام .

٣ - جبل : أى موسى عليه السلام .

٤ - رفاعة : أى عيسى عليه السلام .

٥ - قاسم : أى محمد ﷺ .

أما القسم الثانى : فهو مكوَّن من فصل واحد هو : عرفة ، وقد جعله المؤلف رمزاً للعلم الحديث كما تقدم .

إن مادة القسم الأول شاملاً المقدمة والفصول الأربعة المتقدم ذكرها ، هى - بلا جدال - وقائع التاريخ الدينى النبوى ، ممثلاً فى أبى البَشر آدم (أدهم فى الرواية) ثم الرُّسُل الثلاثة الكبار :

موسى ، وعيسى ، ومحمد ﷺ ، والمرموز لهم فى الرواية بـ : جبل ، ورفاعة ، وقاسم . وقد أقمنا على صحة هذا « الفهم » عشرات الأدلة القاطعة ، والبراهين الساطعة ، والحجج الدامغة التى لا تقبل أدنى نزاع مهما أوتى المدافعون عن الرواية من مهارة فى المغالطات ، ومن أساليب الخداع والتمويه [١] .

إن « الحارة » رمز للدنيا كلها ، وليست « حارة » بالمعنى الضيق المعروف للناس .

إن « أولاد الحارة » هم البَشر جميعاً من لدن آدم عليه السلام إلى العصر الحاضر ، وربما دخل فيهم - عند المؤلف - الملائكة والشياطين ؟! [٢] .

● **الجبلاوى :**

الجبلاوى فى الرواية هو قطب الأقطاب ، والمصدر الوحيد للتاريخ الدينى النبوى ، وهو فى الرواية رمز لـ « الله » سبحانه وتعالى .

وقد ذكرنا - فيما تقدم - الأدلة « القطعية » على أن الجبلاوى فى الرواية هو « الله » سبحانه وتعالى ، ونريد هنا أن نرد - فى إيجاز واف - على من أنكر هذا « الفهم » الذى فهمه بعض نقاد الرواية . وقد جاءت دراستنا هذه مناصرة لما فهموه مع إثباته بالبراهين القاطعة كما تقدم فى غضون هذه الدراسة .

---

(١) لعل السر فى اكتفاء المؤلف بالحديث عن هؤلاء الرُّسُل الثلاثة دون غيرهم أن لكل منهم اتباعاً ينسبون إليهم ، وهم اليهود والنصارى والمسلمون ، أما غيرهم من الرُّسُل كإبراهيم عليه السلام فليس لهم الآن أتباع معينون .

(٢) سبق أن رمز المؤلف لجماعة الملائكة ، بـ « رضوان وجليل وعباس وقنديل » ، ورمز إلى الشياطين بإدريس وابنته هند ، ومن الجميع جاء أولاد الحارة .

● **شبهتان للمنكرين :**

الذين أنكروا أن يكون « الجبلاوى » فى الرواية هو « الله » استندوا إلى شبهتين حسبوهما دليلين ، وما هما بدليلين قط :

الشبهة الأولى :

أن اسم الله قد ورد مصرحاً به فى الرواية فى بعض المواضع ، حتى فى الحديث مع « الجبلاوى » نفسه ، من ذلك - مثلاً - قول جبل للجبلاوى :

« الحمد لرب السموات على أنك ما زلت تتمتع بصحتك » (١) .

ومثل قول جبل : « ألا لعنة الله على الجبناء » (٢) .

قلت : ليس فى هذه الأقوال - وما أشبهها - دليل قط على أن « الجبلاوى » فى الرواية ليس هو « الله » ؛ لأن المؤلف - كعادته - فى التمويه يتحدث عن « الله » باسمه الصريح حيناً ، وبالرمز أحياناً أُخرى .

وهذه الشبهة كانت « تفيد » فى الدفاع لو كانت التهمة الموجهة إلى المؤلف هى « إنكار وجود الله » ؟ لكن هذه التهمة ليس لها وجود لدينا ، وإنما التهمة هى أن المؤلف يتحدث عن « الله » الذى يؤمن به حديثاً لا يليق بجلاله ووحدانيته ومخالفته للحوادث .

الشبهة الثانية :

أما الشبهة الثانية التى استند إليها هؤلاء « المنكرون » ، فهى ما أورده المؤلف على لسان إدريس (أى إبليس) بعد أن طرده « الجبلاوى » (أى الله) من البيت الكبير - أى من الجنة :

« ما أهون الأُبُوَّة عليك ؟ خُلِقْتَ جَبَّاراً فتوَّة » ؟! (٣)

---

(١) « أولاد حارتنا » ص ١٧٨ (٢) « أولاد حارتنا » ص ١٨٧

(٣) « أولاد حارتنا » ص ١٥

وجه الاستدلال عندهم أن الجبلاوى - هنا - وُصِف بأنه مخلوق ، والله ليس مخلوقاً .

هذا الدفاع مع صحته فى نفسه فليس فيه دليل على أن « الجبلاوى » فى الرواية ليس هو « الله » ، وذلك لسببين :

الأول : ليس وصف « الجبلاوى » فى الرواية بأنه مخلوق هو الوصف الوحيد الذى لا يليق بـ « الله » ، فالجبلاوى فى الرواية له صاحبة وولد ، ويأكل ويْشرب ، ويرتاح وينام ، ويتقدم به العمر ، وله خدم وغرفة نوم ، ويموت أو يُقْتل ؟! فلماذا يتمسك المنكرون بوصف « المخلوقية » ويَدَعُون ما عداه من الأوصاف « البَشرية » ؟!

أما السبب الثانى ، فإن المؤلف لم يُعبِّر عن معنى واحد من معانيه « الجُوَّانية » إلا بالرموز ، وهذا ينطبق على قوله : « خُلِقْتَ » وصفاً لـ « الجبلاوى » رمز الأُلوهية (الله) فى الرواية . فليس ببعيد أن يكون المؤلف قد أراد من « خُلِقْتَ » معنى رمزياً هو : « الوجود المطلق » ، وليس الخلق بمعنى الإيجاد من العدم ، المقتضى لوجود خالق غير الله ؟!

وبهذا يتضح لنا وللقراء ضعف مستند « المنكرين » فى الدفاع عن الأُستاذ نجيب محفوظ وأولاد حارته .

ولدينا رد آخر يشمل الشبهتين معاً ، وهو أن هذا كله إنما ذكره المؤلف بقصد التمويه على « القُرَّاء » ليبعد عن نفسه التهمة التى أشرنا إليها من قبل ، وهى نقده أو نقضه للتاريخ الدينى النبوى ، ووصفه بـ « الفشل » فى الريادة والإصلاح تمهيداً للإطاحة به - دفعة واحدة - ثم إحلال العلم الحديث « محله » ؟!

* *

● **دفاع مضحك** :

وقد قرأت - مؤخراً - دفاعاً من نوع جديد لصاحب منصب « أدبى رفيع »

ورئيس أضخم مؤسسة فى مصر تقوم على نشر المعرفة تأليفاً ، وترجمة ، وهى من مؤسسات الدولة الرسمية .

صاحب هذا المنصب يُنْكِر أن يكون « الجبلاوى » فى الرواية هو « الله » . أما دليل إنكاره فأعجب من العجب ، وخلاصته هى :

« الجبلاوى » ليس هو الله فى الرواية ؛ لأنه - يعنى « الجبلاوى » دائماً يُقْسِمُ بالله ، فكيف يكون هو الله ، وهو - دائماً - يقسم بالله ؟!

هذه خلاصة أمينة لما قاله هذا « الرئيس » ؟! قرأت هذا الكلام فأضحكنى من الأعماق ، ثم قلت :

وما المانع - يا حضرة الرئيس - فالله نفسه قد أقسم بنفسه وبصفاته ، وببعض مخلوقاته ، وجاء ذلك كله فى كتاب الله العزيز :

أقسم بنفسه فقال : ﴿ تَاللهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴾ (١) .

وقال : ﴿ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ . . . ﴾ (٢) .

وقال : ﴿ يَسِ * وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴾ (٣) .

وقال فى الإقسام ببعض مخلوقاته - وما أكثر إقسامه بها - :

﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى ﴾ (٤) .

فهل يُسْتَدلُّ - على طريقتك - بأن الله فى القرآن هو ليس الله ؟! لأنه أقسم بنفسه يا حضرة الرئيس ؟!

فلو فُرِضَ أن « الجبلاوى » فى الرواية يُقْسم بالله - دائماً - كما زعمت فليس فى ذلك دليل على أن « الجبلاوى » فى الرواية لم يرمز به « صديقك » إلى الله ؟

---

(١) النحل : ٥٦ (٢) الذاريات : ٢٣

(٣) يس : ١ - ٢ ، والقرآن كلام الله فهو صفة من صفاته . (٤) النجم : ١ - ٢

● ولكنه لم يُقْسم :

جارينا « حضرة الرئيس » جدلاً على أن « الجبلاوى » فى الرواية يُقسم بالله - دائماً - جاريناه لنُبْطِلَ استدلاله على أن الجبلاوى فى الرواية ليس هو « الله » وها نحن قد أبطلنا هذا الاستدلال كما رأيت .

بيد أن الواقع أن « الجبلاوى » لم يقسم بالله ولا حتى مرة واحدة ، ولا نصف مرة إن صح هذا التعبير . فالرواية على طولها الطويل (٥٥٢ صفحة من القطع الكبير) تخلو تماماً من إقسام « الجبلاوى » بالله ، بل وبغير الله .

اللَّهُمَّ إلا مرة واحدة أقسم فيها « الجبلاوى » ، ولكن بالطلاق وليس بالله ؟!

فقد ذكر المؤلف عبارة أسندها إلى الجبلاوى صدرت منه - كما زعمت الرواية - فى حالة غضب ، بعد طرد إدريس (أى إبليس) من البيت الكبير ، وحذَّر أهل البيت من السماح بدخول إدريس فيه . قال المؤلف على لسان الجبلاوى :

« الهلاك لمن يسمح له بالعودة ، أو يعينه عليها ، ورفع رأسه - يعنى الجبلاوى - صوب نوافذ الحريم المغلقة وصاح مرة أُخرى :

« وطالقة ثلاثاً من تجترئ على هذا . . » (١) .

هذا هو القسم الوحيد للجبلاوى فى رواية « أولاد الحارة » ؟!

فهل هذا قسم بالله ؟ ولو فرضنا جدلاً أنه قسم بالله ، فأين الاستمرار والدوام الذى عبَّر عنه « حضرة الريس » بأن الجبلاوى يقسم بالله دائماً ؟!

وأكاد أقسم بالله باراً غير آثم أن « حضرة الريس » لم يقرأ رواية « أولاد حارتنا » قط ، ولو كان قرأها لما ورَّط نفسه فى هذه الورطة « البلقاء » ، ويبدو لى أن كل المدافعين أو جُلَّهم من هذا القبيل ؟!

---

(١) « أولاد حارتنا » ص ١٦

● **إمَّا هذا ، وإمَّا ذاك** :

وهل درى هؤلاء المدافعون عن الرواية ، الذاهبون إلى أن « الجبلاوى » فى الرواية ليس رمزاً للأُلوهية « الله » ، هل دَرَوْا بأن دفاعهم هذا يُورِّط « المؤلف » فى عقيدة الإشراك بالله - سبحانه - وأنَّه - أى المؤلف - يدعو مع الله إلهاً آخر ليس له به علم ، وما أنزل الله به من سُلْطان ؟!

* *

● **بيان ذلك** :

فقد ثبت فى هذه الدراسة على وجه « اليقين » أن أدهم هو آدم ، وأن « جبل » هو موسى ، وأن « رفاعة » هو عيسى ، وأن « قاسم » هو محمد صلى الله عليهم وسلم .

فإذا صحَّ أن « الجبلاوى » فى الرواية ليس رمزاً لـ « الله » ، فيلزم من ذلك وجود إلَه آخر اسمه « الجبلاوى » مع الله الواحد الأحد قيوم السموات والأرض ؟!

ويلزم أن هذا الإلَه الوهمى هو الذى :

- أخرج آدم وزوجه من الجنة ؟!
- وطرد إبليس ولعنه ؟!
- وأرسل موسى وعيسى ومحمداً ﷺ ؟!
- ثم هو الذى أنزل التوراة والإنجيل والقرآن ؟!

فما هو رأى هؤلاء القائلين بأن « الجبلاوى » فى الرواية ليس هو « الله » بعد هذا البيان ؟!

إنهم - لا محالة - مُلْزَمون **بواحد من أمرين** كلاهما شديد المرارة :

- فإما أن يُقرُّوا بأن « الجبلاوى » هو « الله » فى الرواية ، فيلزمهم أن

يوافقونا على أن الرواية أساءت - كل الإساءة - إلى الذات العلية ، وإلى الرُّسُل الكرام ، وسخرت سخرية لاذعة بالتاريخ الدينى النبوى ؟!

● وإما أن يتمسكوا - جدلاً - بأن « الجبلاوى » ليس هو « الله » فى الرواية ، فيلزمهم أن ينسبوا « المؤلف » إلى عقيدة الشرك والعياذ بالله ؟

أمران شديدا المرارة ، وخيما العاقبة ، فإما هذا ، وإما ذاك ، ولا ثالث لهما ؟ فأين المفر يا حضرات المدافعين ؟!

* *

● ثم ما رأيكم :

ثم ما رأيكم أيها السادة القائلون بأن « الجبلاوى » فى الرواية ليس هو « الله » :

أنصدقكم أم نُصدِّق المؤلف نفسه ؟ أعتقد أن تصديق المؤلف هو المتعيِّن هنا ؛ لأنه كاتب « النَّصِّ الروائى » لا أنتم .

فقد تخيَّل المؤلف أن حديثاً دار بين « عرفة » وزوجته « عواطف » ، فقالت « عواطف » هانم لزوجها « عرفة » وهى تتحدث عن « الجبلاوى » بوصف « جَدُّنا » :

« جَدُّنا من دنيا ، ونحن من دنيا أُخرى » (١) .

أليست هذه العبارة دليلاً قاطعاً على أن « الجبلاوى » مُغَاير مغايرة تامة لأبناء الحارة - أى أهل الدنيا - جميعاً ، فمن يكون هذا « الجبلاوى » إن لم يُرد به المؤلف « الله » ؟!

نحن وأنتم نعلم أن هذا الكلام هو كلام المؤلف نفسه ، سواء أسنده إلى عواطف أو إلى غير عواطف من « شخوص » روايته ، ونعود مرة أُخرى فنسألكم : أنصدقكم أم نصدق المؤلف ؟!

---

(١) « أولاد حارتنا » ص ٤٩٧

وليست هذه العبارة هى وحدها التى فلتت من « جُوَّانيات » المؤلف ، فكانت وصفاً صريحاً لائقاً بـ « الجبلاوى » المرموز به لـ « الله » .

فقد سبق أن قال المؤلف على لسان جبل فى وصف « الجبلاوى » :

« ليس كمثله أحد من أولاد حارتنا ، ولا من الناس جميعاً » ؟!

وقد ذكرنا هذه العبارة من قبل ، ونظَّرْنا بينها وبين قول الله تعالى واصفاً ذاته العلية :

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ (١) .

فهل - بعد هذا - يقال ، أو يُصَدَّق إذا قيل : إن الجبلاوى فى الرواية ليس هو « الله » ؟

وإذا ثبت يقيناً أن الجبلاوى فى الرواية هو « الله » وها هو ذا قد ثبت - فإنه يثبت - يقيناً - كذلك أن :

- « أدهم » هو آدم عليه السلام .
- وأن « جبل » هو موسى عليه السلام .
- وأن « رفاعة » هو عيسى عليه السلام .
- وأن « قاسم » هو محمد ﷺ .
- وأن « الحارة » هى الدنيا بأسرها .
- وأن أولاد الحارة هم الخلق من الإنس والجن ، بل والملائكة .

ويثبت تبعاً لهذا كله :

أن موضوع رواية « أولاد حارتنا » :

---

(١) الشورى : ١١

المقدمة والفصول الأربعة :

أدهم ، وجبل ، ورفاعة ، وقاسم هو :

وقائع التاريخ الدينى النبوى .

وأن الرواية قدَّمت هذا التاريخ « المقدس » فى إطار رمزى مغلف ، وجعلته هدفاً للنقد الساخط أو « النقض » تمهيداً للإطاحة به ، وإحلال العلم الحديث محله فى الريادة والتوجيه ؟!

* *

● **ملاحظاتنا على القسم الأول :**

ولنا عدة ملاحظات على القسم الأول نسجلها فيما يأتى فى إيجاز :

الملاحظة الأولى - تحريف الوقائع :

عرض المؤلف وقائع التاريخ الدينى النبوى فى الفصول الأربعة الأولى :

أدهم ، وجبل ، ورفاعة ، وقاسم عرضاً محرَّفاً مزوَّراً :

ففى فصل « أدهم » - آدم عليه السلام - حرَّف كثيراً من الوقائع ، حيث جعل خطيئة آدم - مثلاً - هى محاولة الاطلاع على « كتاب الحجة » بدلاً من الأكل من الشجرة ، وجعل معصية إدريس - أى إبليس - اعتراضه على إسناد إدارة الوقف إلى آدم ، بدلاً من امتناع إبليس عن السجود لآدم حين أمره الله به ؟؟

وفى فصل « جبل » - أى موسى عليه السلام - جَعَل التقاط آل فرعون لموسى من حفرة بدلاً من اليم ، وجعل البئر التى سقى موسى أغنام ابنتى شعيب منها ، جعلها صنبوراً أو حنفية مياه ، وجعل « شعيب » هو الذى جاء إلى موسى بدلاً من ذهاب موسى إليه ؟؟

وفى فصل « رفاعة » جعل الحوارى الخائن الذى أرشد اليهود على المكان

الذى اختفى فيه عيسى عليه السلام امرأة كان عيسى قد تزوجها ، وهى جاسوس عليه .

وجعل لعيسى أباً هو « شافعى » ، وعيسى عليه السلام ليس له أب .

أما فى فصل « قاسم » - أى محمد ﷺ - فقد كثر التحريف والتزوير . من ذلك الافتراء الصارخ على السيرة النبوية الطاهرة ، حيث زعم أن « قاسم » كان بيَّاع بطاطة ، وأنه ضُبط متلبساً باختلاس ثمار الجوافة من حديقة يملكها آخرون ، وأنه جرى فى الشارع عريان والأطفال يتضاحكون حوله .

وأنه كان تلميذاً لورقة بن نوفل ، وكان يناديه بـ « يا معلمى » ؟! ، وأن خديجة تشككت كثيراً فى أمر الرسالة . . . إلخ . . . إلخ .

وسبب هذا التحريف أمران فيما قدرنا :

أحدهما : حرص المؤلف على الاستفادة من وقائع التاريخ الدينى النبوى فى « رسم شخصيات الرواية » ، وهذا أمر ظاهر جداً فى القسم الأول من الرواية .

والثانى : حرص المؤلف الشديد على إخفاء « جوانياته » ، وعدم ظهورها للقُرَّاء ؛ لأن الرواية - كما عرفنا من قبل - أخضعت التاريخ الدينى النبوى ، - وهو مقدس - للنقد والنقض معاً ، وهذا أمر - لو ظهر - لقابله النَّاس بالاستنكار والاستياء ، بل وبالغضب والسخط .

لذلك لجأ المؤلف إلى التعبير الرمزى **أولاً** ، ثم إلى تحريف الوقائع **ثانياً** ، **ودار التحريف فى الرواية على ثلاثة محاور :**

الأول : استبدال الواقعة بأُخرى شبيهة بها من بعض الوجوه ، ومختلفة فى الوجوه الأُخرى .

الثانى : بتر جزء أو أجزاء من الواقعة المراد الاستفادة منها فى رسم شخصيات الرواية .

الثالث : زيادة جزء أو أجزاء مضافة إلى الواقعة ، أو يأتى بحشو مُتَعمَّد قصداً للتمويه على القارئ ؟

وقد مرَّت فى غضون هذه الدراسة أمثلة عديدة لكل محور من هذه المحاور .

والاعتذار عن المؤلف بأنه يكتب فنّاً لا تاريخاً مرفوض مرفوض كما تقدم توضيح ذلك .

الملاحظة الثانية – الإساءة إلى الذات العلية ؟!

لم توجه رواية « أولاد حارتنا » كمّاً هائلاً من الإساءة مثلما وجهت إلى « الجبلاوى » رمز الأُلوهية (الله) ، وجاءت هذه الإساءات على لسانَى كل من إدريس الذى هو « إبليس » فى الرواية ، ثم قدرى الذى هو « قابيل » أحد ابنى آدم ، وقاتل « هابيل » أخيه ، وهو « همام » فى الرواية .

هذا بالإضافة إلى الأوصاف البَشرية التى وُصِفَ بها « الجبلاوى » فى الرواية كلها من التزوج والإنجاب والاحتياج إلى « غيره » والأكل والشرب والراحة والنوم والشيخوخة ، والاعتزال ، ثم القتل والموت ؟! وكل هذه افتراءات تكاد السماوات تتفطر منها وتنشق الأرض ، وتخر الجبال هُدّاً .

* *

● **نماذج من سباب إدريس :**

إدريس لأدهم :

● « اخرس يا كلب يا ابن الكلب » ؟! [1] .

● « طغيان أبيك أنطقنى بالحق » ؟؟ [2] .

● « طردنى أبوك بدون حياء ؛ فليتحمل العواقب » ؟! [3] .

---

(١) « أولاد حارتنا » ص ٢٢ مع ملاحظة أن الرواية تصف أدهم وإدريس بأنهما ولدا الجبلاوى ؟!

(٢) « أولاد حارتنا » ص ٢٣ (٣) « أولاد حارتنا » ص ٢٣

إدريس يخاطب الجبلاوى :

« وتقبع أنت وحيداً فى بيتك ، تبدل وتغير فى كتابك كيف شاء لك الغضب والفشل ؟! وتعانى وحدة الشيخوخة فى الظلام حتى إذا جاء الأجل فلن تجد عيناً تبكيك » ؟! [١] .

وحسبنا هذا القدر من بذاءات إدريس وإساءاته الموجهة إلى الجبلاوى ، ذكرناها على سبيل التمثيل لا الحصر .

* *

● نماذج من سباب قدرى :

قدرى لهمام :

« أؤكد لك أن جدنا - يعنى الجبلاوى - شخص شاذ لا يستحق الاحترام ، ولو كان به ذرة من خير لما جفا لحمه هذا الجفاء الغريب ؟! إنى آراه كما يراه عمنا - يعنى إدريس - لعنة من لعنات الدهر . . . لقد نال هذه الأرض هبة بلا عناء ، ثم طغى واستكبر » ؟! [٢] .

قدرى لأدهم :

« هذا الرجل - أى الجبلاوى - أسوأ من ابنه إدريس » ؟! [٣] - يعنى إبليس - .

قدرى لهمام :

« هل وعدك البلطجى الأكبر - يعنى الجبلاوى - بالحماية » ؟ [٤] .

وحسبنا - كذلك - هذا القدر من بذاءات قدرى الموجهة إلى الجبلاوى ، وما أكثرها ، وعلم الله أننا مكرهون على نقل هذه « الكفريات » لأننا نريد أن

---

(١) « أولاد حارتنا » ص ٥١ (٢) « أولاد حارتنا » ص ٧١

(٣) « أولاد حارتنا » ص ٩٢ (٤) « أولاد حارتنا » ص ٩٤

نقنع القارئ الذى تتح له فرصة قراءة الرواية « أولاد حارتنا » بالحكم الذى سنراه مناسباً لهذه الرواية المشئومة .

وفى ختام هذه الملاحظة نقول :

إن رواية « أولاد حارتنا » كان ينبغى عليها أن ترعى حرمة الجبلاوى هذا ما دامت قد رمزت به إلى « الله » ، وهى مسئولة عن كل كلمة وردت فيها ، سواء أسندتها إلى « شخوصها » أو « أشخاصها » ، وهم جميعاً - الشخوص والأشخاص - أبرياء مما أسندته الرواية إليهم ، أبرياء أمام الله ، وأبرياء أمام الناس ؛ لأنهم لم يقولوا حرفاً واحداً مما نُسِبَ إليهم ، ويعلم الله ، وتشهد ملائكته وصالحو المؤمنين أن إبليس نفسه - فيما حكاه عنه القرآن - كان أكثر أدباً مع الله من رواية « أولاد حارتنا » ، وأعرف بجلال الله وعظمته من هذه الرواية الطائشة الرعناء ؟!

* *

الملاحظة الثالثة - الإساءة إلى رسول الإسلام - صلى الله عليه وسلم - :

تحدثت الرواية بعد حديثها عن آدم عن ثلاثة من الرُّسُل الكبار : موسى ، وعيسى ، ومحمد ﷺ ، وحديثها عن الرسولين الأوَّلين موسى وعيسى عليهما السلام كان معتدلاً نوعاً مَّا ، فلم يرد فيه ما يسئ إساءة جارحة لأىٍّ منهما .

● أما حديثها عن محمد رسول الإسلام ﷺ ، فقد جاء مليئاً بالإساءة والتجريح إلى حد الافتراء فى بعض الأحيان ، فقد نسبت إليه الرواية اختلاس ثمار الجوافة ، والجرى فى الطريق العام وهو عارٍ تماماً من ملابسه مع تضاحك الأطفال عليه ؟!

وهذا افتراء محض وكذب صارخ على من أرسله الله رحمة للعالَمين ، وصانه من « العبث » فى جميع مراحل عمره المبارك قبل البعثة وبعدها .

● ثم جعلته الرواية « بيَّاع بطاطة » ينادى على بضاعته ويقول وهو « يزق » عربة يد « كاروا » :

« بطاطة العمدة . . بطاطة الفرن » ؟!

وهذا كذاك افتراء خالص ، وليس له سند من الواقع ولا من الوهم ؟!

● وجعلته الرواية مُغْرماً بمعاكسة الفتيات يترصدهن فى الطريق العام قبيل الغروب ؟!

● وجعلته الرواية كسولاً لا يحب العمل ، ويخلد إلى الراحة والدعة حتى أكرهته السيدة خديجة على العمل فى إدارة أملاكها ؟!

● ثم أجلسته الرواية على « المقاهى » وسقته الـ . . . على الجوزة ؟!

● ووصفت الرواية حفل زفافه إلى « خديجة » وصفاً مزرياً للغاية ، كانت الخمور تجرى فيه أنهاراً ، وكل المدعوين كانوا سكارى ومساطيل ؟!

● وجعلت الرواية محمداً وخديجة يسيران فى ليلة زفافهما خلف راقصة تتمايل وتهتز وكأنها تلقى عليهما الدرس الأخير فى العلاقات الـ . . . ؟

● وعيَّرته الرواية - مرات - بأنه راعى غنم لليهود والنصارى وغيرهم ؟!

لم ترع الرواية حرمة خاتم النبيين الذى وصفه رب العالمين بأنه سراج منير ، وعلى خلق عظيم ، ورحمة للناس كافة :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً * وَدَاعِياً إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً ﴾ (١) .

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ (٢) .

هكذا صنعت الرواية مع خير خلق الله ، وهى تعلم عمَّنْ تتحدث جلالاً وعظمة ، وهيبة ووقاراً ؟!

---

(١) الأحزاب : ٤٥ - ٤٦ (٢) القلم : ٤

الملاحظة الرابعة - الحط من قَدْر العرب والمسلمين ؟!

وعندما تحدثت الرواية عن آل حمدان أو آل جبل ، وهما رمزان لليهود قبل موسى عليه السلام وبعده ، وعندما تحدثت الرواية عن آل رفاعة ، وهم رمز للنصارى ، عندما تحدثت الرواية عن هاتين الطائفتين ، تحدثت عنهما بكل تقدير واحترام ، ولكن عندما تحدثت عن العرب قبل الإسلام ، ثم عن المسلمين بعد الإسلام رمتهم بكل نقيصة ، فهم أتعس أولاد الحارة - أى الدنيا - وهم الجرابيع الحفاة العراة الذين لا أصل لهم ولا صفة - أى كريمة - وحياتهم لا تعلو كثيراً عن حياة الكلاب والقطط والذباب ؟! يلتمسون رزقهم فى النفايات وأكوام القمامة ؟!

هكذا ورب السموات والأرض وصفت الرواية العرب والمسلمين ، العرب الذين اختار الله رسوله الخاتم منهم ، وأنزل كتابه المعجز بلغتهم ، وشرفهم بجعلهم أول من يتلقى رسالته الخاتمة ، ثم يبلغونها للناس فى مشارق الأرض ومغاربها .

والمسلمون الذين وصفهم الله بأنهم « خَيْرُ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ » هُمْ فى رواية « أولاد حارتنا » أحط الناس قدراً ، منزلتهم منزلة الكلاب والقطط والذباب ؟!

أليس هذا مما يجعل الحليم حيران ، ويدعو إلى سوء الظن فى الرواية ومؤلفها والمدافعين عنها إلى آخر شوط ، وإلى أبعد مدى ؟!

أليس فى هذا « الصُّنْع » محاولة سافرة لمصادرة قول الحق :

« اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ . . » ؟!

ليتنا نعلم الثأر الذى بين رواية « أولاد حارتنا » وبين العروبة والإسلام والمسلمين ؟!

أم أن موعدنا « يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ » ؟!

الملاحظة الخامسة - مناصرة غير الإسلام على الإسلام ؟!

ومن الملاحظات البارزة على الرواية ، أنها - دائماً - تناصر غير الإسلام على الإسلام نفسه ، حتى فى العقائد الثوابت فى الإسلام ، ولنضرب بعض الأمثلة :

● تفضيل عيسى على محمد صلى الله عليهما وسلم ، وعِلَّة تفضيل عيسى على محمد فى الرواية أن عيسى كان عزوفاً عن النساء ؛ أما محمد فكان يترصد الفتيات عند المغيب ، وكان زير نساء ؟!

هذا ما يقوله الحمقى من المبشِّرين والمستشرقين ، وقد ناصرتهم الرواية وخذلت المسلمين ؟!

● مجاراة الرواية لليهود ، أو مناصرتهم فى دعواهم أنهم قتلوا عيسى عليه السلام وصلبوه ، فتجزم الرواية أنهم قتلوه فِعْلاً ، وتضرب عرض الحائط بعقيدة المسلمين وبقول الحق :

﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ . . ﴾ (١) .

● وناصرت الرواية المبشِّرين والمستشرقين فى اتهامهم نبى الإسلام بعشق زينب بنت جحش زوجة زيد بن حارثة ، ثم تزوجه منها بعد أن طلقها زيد استجابة للواعج العشق ؟! (٢) .

● تناصر الرواية أعداء الإسلام وتُعبِّر عن مناصرتها لهم بقولها :

« وتعشَّق امرأة من الجرابيع - أى المسلمين العرب - ثم تزوجها أيضاً » ؟! (٣) .

● دعوى الرواية أن السيدة خديجة تشككت طويلاً فى أمر الرسالة لَمَّا أخبرها النبى ﷺ ببدء نزول الوحى عليه ، وأنها ظلَّت تراجعه وتجادله حتى

---

(١) النساء : ١٥٧

(٢) تقدمت هذه القصة مفصلة ، انظر ( ) من هذه الدراسة .

(٣) « أولاد حارتنا » ص ٤٤٣

قال لها : إنى أعفيك من أن تصدقينى ؟! مع أن الثابت إسلامياً أن السيدة خديجة بادرت بقولها :

« إنى لأرجو أن تكون نبى هذه الأُمَّة » عند أول سماعها بنزول الوحى .

ودعوى الرواية كاذبة كاذبة ، وهى مجاراة منها ومناصرة لمزاعم أعداء الإسلام .

● ناصرت الرواية حقدة المستشرقين والمبشِّرين فى دعواهم أن القرآن مقتبس من التوراة والإنجيل ؟! فجاءت الرواية تقول - كذباً وزوراً وبهتاناً - : أن قاسماً أو محمداً ﷺ كان يتردد كثيراً على ورقة بن نوفل الكاهن النصرانى ، وأخذ عنه علماً غزيراً ، وأن محمداً كان يخاطب ورقة بقوله : « يا معلمى » ؟! ، والرواية تعلم أن محمداً ﷺ ليس له مُعَلِّم قط إلا الله عَزَّ وجَلَّ ، وبذلك نزل الوحى الأمين :

﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ ، إِذاً لاَّرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ (١) .

﴿ وَأَنْزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيماً ﴾ (٢) .

أليس هذا - مرة أُخرى - داعياً إلى سوء الظن فى الرواية إلى آخر شوط ؟!

* *

الملاحظة السادسة - تجريد التاريخ النبوى من محتواه :

حرص المؤلف - كل الحرص - على تجريد التاريخ الدينى النبوى من محتواه، وتفريغه تماماً من « الإيمانيات والروحانيات » وتصويره فى صورة صراع مادى صرف يبدأ وينتهى حول حطام الدنيا وملذاتها الفانية ؟!

---

(١) العنكبوت : ٤٨ (٢) النساء : ١١٣

فليس فى الرواية « أولاد حارتنا » أية إشارة ، ولو رمزية إلى قضية التوحيد والإيمان بما وراء الطبيعة من حقائق هى أُسس ما نادت به الرسالات السماوية .

● فمثلاً لقاء موسى بفرعون لم يكن إلا لنيل بنى إسرائيل حقوقهم من « الوقف » وحصولهم على المعاملة الكريمة فى المجتمع الفرعونى المستبد .

● ودعوة موسى لبنى إسرائيل محصورة - فى الرواية - فى توحيد صفوفهم لينالوا حقوقهم ، ويمكنهم الحفاظ عليها إذا نالوها .

● ومهمة عيسى كانت لمحاربة العفاريت وتخليص المرضى من شرورها ليكونوا أصحاء ؟!

● ورسالة محمد - صلى الله عليه وعليهم جميعاً وسلم - كانت لمحاربة « الفتوات » وتسخير « الوقف » للجميع .

● أما مهمة « عرفة » فكانت لإحلال قوة العلم الحديث محل الإيمان بالله ورُسُله ، بعد أن حكمت الرواية على هذا الإيمان بالفشل ؟!

ومؤدى هذا كله :

أن الرواية تجارى العلمانية فى تفسيرها المادى للتاريخ رضى المؤلف أم لم يرض ، أحبَّ أم كره .

* *

الملاحظة السابعة - التعاطف مع الشيطان ؟!

جارت الرواية « أولاد حارتنا » بعض الكُتَّاب الأوروبيين والعرب فى التعاطف مع الشيطان الذى طرده الله من الجنة بسبب عصيانه وكفره ، ونظروا إلى هذه الواقعة على أنها من وقائع « حرية الرأى » ، وأن الشيطان عوقب - ظلماً - على رأى أبداه ، وعقيدة اعتقدها ، حملته على عدم السجود لآدم ؟ بل إن بعض الدجَّالين العرب دعا إلى نصرة الشيطان على الله عَزَّ وجَلَّ ، وزعم هذا الأفَّاق الأشر أن الشيطان قال لله :

«لا أسجد إلا لك» ، ومع هذا عاقبه الله وطرده وهو مظلوم مظلوم ؟! (١) .

واشترك فى هذا - الدجل - الأُستاذ توفيق الحكيم من قبل ، وتخيَّل محاورة دارت بين « إبليس » وشيخ الأزهر ، فأفحم إبليس شيخ الأزهر ؟! وأثبت - إبليس - أمام شيخ الأزهر أنه مظلوم ، مظلوم ، وأن جميع الكائنات كانت تردد صياح إبليس : أنا مظلوم مظلوم ؟!

سارت رواية « أولاد حارتنا » فى هذا الاتجاه ، ولوَّحتْ كثيراً بأن « إدريس » ، وهو رمز الشيطان فيها ، طرد من البيت الكبير - أى من الجنة - بدون سبب معقول أو مقبول . وزعمت - زوراً وبهتاناً - أن جميع الملائكة ، كانت تؤيد الشيطان ، ولكنهم كتموا أسرارهم خوفاً من بطش « الجبلاوى » (الله) ، وتظاهروا بعدم الاعتراض ؟!

فطرد الشيطان فى الرواية كان لبغض « الجبلاوى » (الله) للشيطان ولإرادته النافذة التى لا تصغى لحجة مظلوم ؟!

* *

الملاحظة الثامنة - ربط منابع النور بمواضع الخطيئة ؟!

ما زلت - والله - فى حَيْرة - من بعض الرموز فى « أولاد حارتنا » ، ومن أكثر الرموز إثارة للحيرة رمز « صخرة هند » ، وقد علم قارئ هذه الدراسة أن « هند » هى ابنة إدريس فى الرواية ، أى ابنة الشيطان ، وأن الصخرة التى أضافها إلى « هند » مؤلف الرواية ، هى المكان الذى زعمت الرواية أن ابن آدم « قدرى » ارتكب فيه « الفاحشة » مع « هند » ، وقد فسرنا الرمز « هند » من قبل بأنه : الغواية الشيطانية ، ولا معنى لها سوى هذا ، إذْ لا يُعْلَمُ أن للشيطان ابنة اسمها « هند » ، وحتى لو كان له ابنة فَمَنْ أدرى المؤلف أنها تُسمَّى هنداً ؟!

---

(١) هو خالد العظم أحد الشيوعيين العرب ، وله بذاءات أُخرى فى هذا المجال أعرضنا عنها لشناعتها .

وليس هذا هو مبعث الحيرة ، وإنما مبعث الحيرة أن مؤلف الرواية الأُستاذ نجيب محفوظ قد ربط بين منابع النور وهى الرسالات السماوية الثلاث ، وبين هذا الموضع « صخرة هند » ، وهو موضع أول جريمة « زنا » تقع فى الوجود حسب « جو » رواية « أولاد حارتنا » الأوسع من الخيال والأوهام ؟!

● فالرُّسُل الكرام تلقوا رسالاتهم من « الجبلاوى » (الله) عند « صخرة هند » ؟!

ومفزعهم وملجؤُهم كان « صخرة هند » ؟!

● وعيسى والحواريون كانوا يتخذون من « صخرة هند » نادياً للحديث والتشاور ؟!

فما الذى حمل المؤلف على ربط منابع النور بمواضع الخطيئة يا ترى ؟!

إنها ملاحظة ذات خطر ، وإنى لأحتفظ بما فهمته منها ، وما أردت إلا أن أشرك معى القارئ فى الحيرة ، ولعله يفهم مثلما فهمت ؟!

* *

الملاحظة التاسعة - الاختيار والتّرك :

عرف قارئ هذه الدراسة أن الفصول الأربعة الأولى : أدهم ، وجبل ، ورفاعة ، وقاسم ، تتناول أحداثاً واقعية لها وجود حقيقى فى التاريخ ، وهى تمثل - كما تقدم - حركة التاريخ الدينى النبوى وتطوراته . وقد لاحظنا أن المؤلف يقف من وقائع هذا التاريخ موقفاً معيناً يقوم على سمتين بارزتين :

إحداهما : الأخذ ، **والأخرى** : التَّرك : أى يأخذ بعض وقائع ذلك التاريخ ، ويترك بعضاً آخر فى رسم صور « الأشخاص » الأربعة ، الذين تحدَّث عنهم ، وهم :

آدم ، وموسى ، وعيسى ، ومحمد ﷺ ، فما أكثر ما تركه من سِيَر هؤلاء الرُّسُل الكرام ، فمما تركه فى « أدهم » المنهج الذى حدده الله لعمارة

الأرض بعد الهبوط ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى ، فَمَنْ تَبِعَ هُدَاىَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُم يَحْزَنُونَ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (١) .

● ومما تركه فى « جبل » فلق البحر وعبور موسى وبنى إسرائيل إلى سيناء ، وغرق فرعون وآله ، ورفع الجبل فوقهم ، ووزارة هارون لموسى .

● ومما تركه فى « رفاعة » حديث المائدة والكلام فى المهد .

● ومما تركه فى « قاسم » الإسراء والمعراج ، وحصار شعب بنى عامر ، ومع هذا الترك ، فإن ما ذكره كان كافياً جداً فى تحديد « حقيقة » كل شخصية من الأربعة المذكورين .

* *

الملاحظة العاشرة - نباهة عرفة وصاحبيه :

إن « عرفة » ، و« حنش » وعواطف هم « الوحيدون » فى الرواية الذين رفعهم المؤلف « مكاناً عَلياً » ، وصانهم من كل ألوان النقص والهمز واللمز أو التجريح ، وهذا يلائم الجو العام لـ . . وجدانيات المؤلف ، « وجوانياته » ؟!

* *

القسم الثانى - عرفة :

أما القسم الثانى ، فهو معقود - أساساً - لعمليتى هدم وبناء ، أو « إعدام » و« إحياء » ، وكانت نِيَّةُ « أولاد حارتنا » مُبَيَّتة على هذا من قبل أن « يُخَطَّ » حرفٌ واحد فيها ؛ فالنية - عادة وواقعاً - تسبق العمل دائماً ، وتكون « هى » الباعث على العمل ، والداعية إليه الهدم أو الإعدام لـ « الدين » الذى جاء به الرُّسُل وَحْياً يوحى من عند ربهم ؟! والإحياء لـ « العلم الحديث » ممثلاً فيما يُدْرَك بالحواس الخمس ، وتُجرى عليه التجارب والملاحظات والمشاهدات ،

---

(١) البقرة : ٣٨ ، ٣٩

ثم تَسْتَخْرجُ قوانينه الكلية ، وقواعده الجزئية المستوحاة من المادة المدروسة ، وكان كل شيء فى الرواية يخدم هذا الاتجاه ، ويمهد له من وراء ستار ، ولكن كيف تمت عمليتا الهدم والبناء ، أو الإعدام والإحياء ؟ هذا تساؤل مهم للغاية .

أما الإجابة عليه فنصورها فى الآتى :

جئ بـ : « عرفة » رمز العلم الحديث ، ونائبه « حنش » ، ثم وُضِعَ بإزائهما التاريخ الدينى النبوى ، ممثلاً فى الجبلاوى ، وأدهم ، وجبل ، ورفاعة ، ثم قاسم . وبدأت العمليتان معاً :

ضربة بالمعول فى صرح التاريخ الدينى النبوى ، ثم وضع لبنة فى صرح العلم الحديث . وتعددت ضربات المعول فى الهدم ، وتعددت كذلك عملية البناء بوضع لبنة جديدة محكمة ، وسار الفصل الخامس « عرفة » على هذا النظام :

كل انخفاض فى جانب التاريخ الدينى النبوى يقابله ارتفاع فى جانب العلم الحديث ؟!

وكل نقص فى الأول يقابله زيادة فى الثانى ، إلى أن وصل الأمر إلى تنفيذ حكم الإعدام التام فى الدين ، وعلى « التو » قام العلم الحديث ، وجلس على « عرش الرحمن » وحل محله ، ومكانه ؟! هذا فى الرواية ، وليس فى الواقع ؟!

والذى قام بتنفيذ حكم الإعدام فى الدين ، هو العلم الحديث نفسه ، ممثلاً فى « عرفة » قاتل الجبلاوى فى الرواية ، وكانت الرواية قد جعلت « الجبلاوى » المصدر الأول والوحيد للاتجاه الدينى فى الوجود كله ، يعنى هو « الله » تعالى عما يقولون عُلُوّاً كبيراً ، وكان لحكم الإعدام فى الرواية مبررات كما تقدم :

● تقدم السن بالجبلاوى ، اعتزاله ، فشل رجاله الكبار : جبل ورفاعة وقاسم ، تَخلُّف منهجه ، فساد بضاعته ، زهد أولاد الحارة فيه وفى رجاله ؟!

أما العلم الحديث فكان يحقق نصراً وازدهاراً وتقدماً كل يوم ، فعرف الناس له فضله ، ووقفوا على قدراته الهائلة ، وطاقاته التى لا حدود لها ، فإنه - كما وصفته الرواية : « قادر على كل شىء » ؟!

فلماذا - وهذا شأنه - لا يكون هو الآمر المطاع ، والناهى المسموع ، ومعقد آمال الناس التى لم يستطع أن يحققها الجبلاوى ورجاله على مدى العمر الطويل ؟!

* *

● **والخلاصة** :

إن هذه الرواية تترجم فى وضوح : أن كاتبها ساعة كتبها كان زاهداً فى « الدين » كل الزهد ، معرضاً عنه كل الأعراض ، ضائقاً به صدره ، أعجمياً به لسانه ، فراح يشفى نفسه الثائرة ، ويعبر عن آرائه فى وحى الله الأمين ، بهذه الأساليب الرمزية الماكرة ، والحيل التعبيرية الغادرة ، رافعاً من شأن العلم الحديث إلى مكان الثريا ، واثقاً فيه كل الثقة ، حتى أجلسه فى روايته على « عرش الدَّيَّان » مناصراً للعلمانية الجاهلة ، على دين الله القيَم ، ورسالاته السامية .

فالرواية - وهذا واقعها - رواية آثمة « مُجَرَّمَةٌ » بكل المقاييس وطنياً ، وقومياً ودينياً .

والتماس البراءة لها : مستحيل ، مستحيل ، مستحيل .

اللَّهُمَّ إلا إذا طمسنا قلوبنا ، وأعمينا أبصارنا ، وسددنا سمعنا ، ثم هتفنا مع أولاد حارة الأُستاذ نجيب محفوظ ، وقلنا كما قالوا : « لا شأن لنا بالماضى ، ولا أمل لنا إلا فى سحر عرفة ، ولو خُيِّرنا بين « الجبلاوى » (الله) والسحر ، لاخترنا السحر » ؟! (١) .

وهيهات هيهات لما يتصورون ؟

---

(١) « أولاد حارتنا » ص ٥٥١

الاقتراح المرفوع إلى المؤلف

بعد التجربة المُرَّة التى عشناها مع الأُستاذ نجيب محفوظ وأولاد حارته ، يطيب لنا أن نتقدم بكل إخلاص إلى أديب مصر والعروبة الأُستاذ نجيب محفوظ ، بهذا الاقتراح الذى لنا فيه مطلبان :

الأول : مطلب « احتياطى » حاصله أن لا يأذن الأُستاذ نجيب محفوظ بإعادة طبع أو نشر أو إذاعة « أولاد حارتنا » بأية لُغة من اللُّغات ، وبخاصة اللُّغة العربية ، لا حجراً على حرية « الفكر » ، ولكن حَسْماً لذرائع « الكفر » لأن فى إعادة نشرها إثماً كبيراً نحسبه هيِّناً ، وهو عند الله عظيم .

الثانى : مطلب « أصلى » حاصله أن يستجمع الأُستاذ نجيب محفوظ كل مقومات الشجاعة الأدبية والإيمانية ، ويعلن للعالم كله ؛ شرقه وغربه ، شماله وجنوبه « تبرؤه » من هذه الرواية الآثمة المُجَرَّمة » بكل المقاييس ؛ لأن فى بقائها منسوبة إليه تبعة تنوء بحملها الجبال ؟!

وقد شكرنا للأُستاذ نجيب محفوظ مَنْعه إعادة نشرها عقب الاعتداء عليه فى أكتوبر الماضى ، وقلنا :

بادرة خير بدرت ، وإحساس إيمانى ظهر ، وتوبة إلى الله لاحت . وخطوة نحو التصحيح بدأت .

وها نحن نهتف به الآن : أكمل ما بدأت يبدِّل الله سيئَاتك حسنات ، ويدخلك مدخلاً كريماً ، ولا تكن كمن قال فيه الشاعر :

لا تَقْطَعَنْ ذَنَب الأفعى وترسلها إن كنت شَهْماً فاتبع رأسها الذَّنَبا

فما الذى يمنعك من إعلان التبرُّؤ يا أُستاذ ؟ نحن ندرك أن صعوبتين قد يقفان أمامك لمنعك من « التبرؤ » :

إحداهما : خذلان « الأصدقاء » الذين « نافقوا » ودافعوا عن الرواية وقضوا لها بالبراءة وأعلنوا ذلك للملأ .

والأُخرى : الشعور بالحرج أمام « نوبل » الذى منحك جائزته « المشبوهة » على أولاد الحارة .

ونقول لك - أيها الأديب الكبير - : إن لكل عُقْدة حلاً ، ولكل مأزق مخرجاً :

فأما الأصدقاء الذين جادلوا عنك فى الحياة الدنيا ، فلا تقم لهم وزناً ، فإنهم لن يستطيعوا أن يجادلوا الله عنك يوم القيامة ، وستنقلب صداقتهم عداوة يوم يقوم الناس لرب العالَمين .

ألم تقرأ قول ربك :

﴿ هَا أَنْتُمْ هَؤُلاَءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَّنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً ﴾ (١) .

وقول ربك :

﴿ الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ ﴾ (٢) .

وإصلاح علاقاتنا مع الله أَوْلى بالرعاية ، وعليها يتوقف مصيرنا عند الله ، وكلنا آتى الرحمن فرداً ، فلا مال ولا زوجة ولا ولد ولا صديق

﴿ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ .

وأما « نوبل » فلا تخشه وإن طالب باسترداد جائزته ، لأنك إذا أعلنت « التبرؤ » فسيدافع عنك مالك الملك : ﴿ إِنَّ اللهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا . . ﴾ (٣) .

وإنك ستدخل فى سويداوات قلوب تُعدُّ بالملايين ، قلوب مؤمنة مُفْعمة

---

(١) النساء : ١٠٩ (٢) الزخرف : ٦٧ (٣) الحج : ٣٨

بالخير ، وسوف يرد أصحابها لنوبل ما أُخذ منه ولو طلب « نوبل » أضعاف أضعاف ما بذل ، فما أهون المال ، وما أعظم مواقف النبل من الرجال ؟

قُلها - أيها الأديب - ولا تخف ، والله - ونحن - معك ، وإن كنا - الآن عليك - رحمة بك لا تحاملاً ، وإشفاقاً لا قسوة ، نريد لك ولنا الخير فى الدنيا والآخرة ، والآخرة خير وأبقى .

أيها الأديب الكبير :

إن كنت قد دخلت التاريخ من باب خلفى ضيق بكتابتك « أولاد حارتنا » فإنك - إذا أعلنت تبرؤك منها - فستدخل التاريخ الشريف من أوسع أبوابه « الأمامية » ، وتتلقاك ملائكة الرحمن قائلين :

﴿ سَلامٌ عَلَيْكُمْ ، طِبْتُمْ ، فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴾ .[الزمر : ٧٣]

وستكون مضرب الأمثال « فى الشجاعة الأدبية » ، وقدوة حسنة يتغنى بها الدهر على مر الأجيال ، هدانا الله وإياك إلى :

ما يرضيه .

ويُرضى رسوله .

ويرضى صالحى المؤمنين .

و« فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » .

« وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » .

[الجاثية : ٣٦ ، ٣٧]

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

البلد الطيب الأمين : مكة المكرمة ، السبت ١٥ من شهر ذى القعدة سنة ١٤١٥ هـ ، الموافق ١٥ من شهر إبريل سنة ١٩٩٥م

المؤلف

عفا الله عنه

* * *